

تريادة

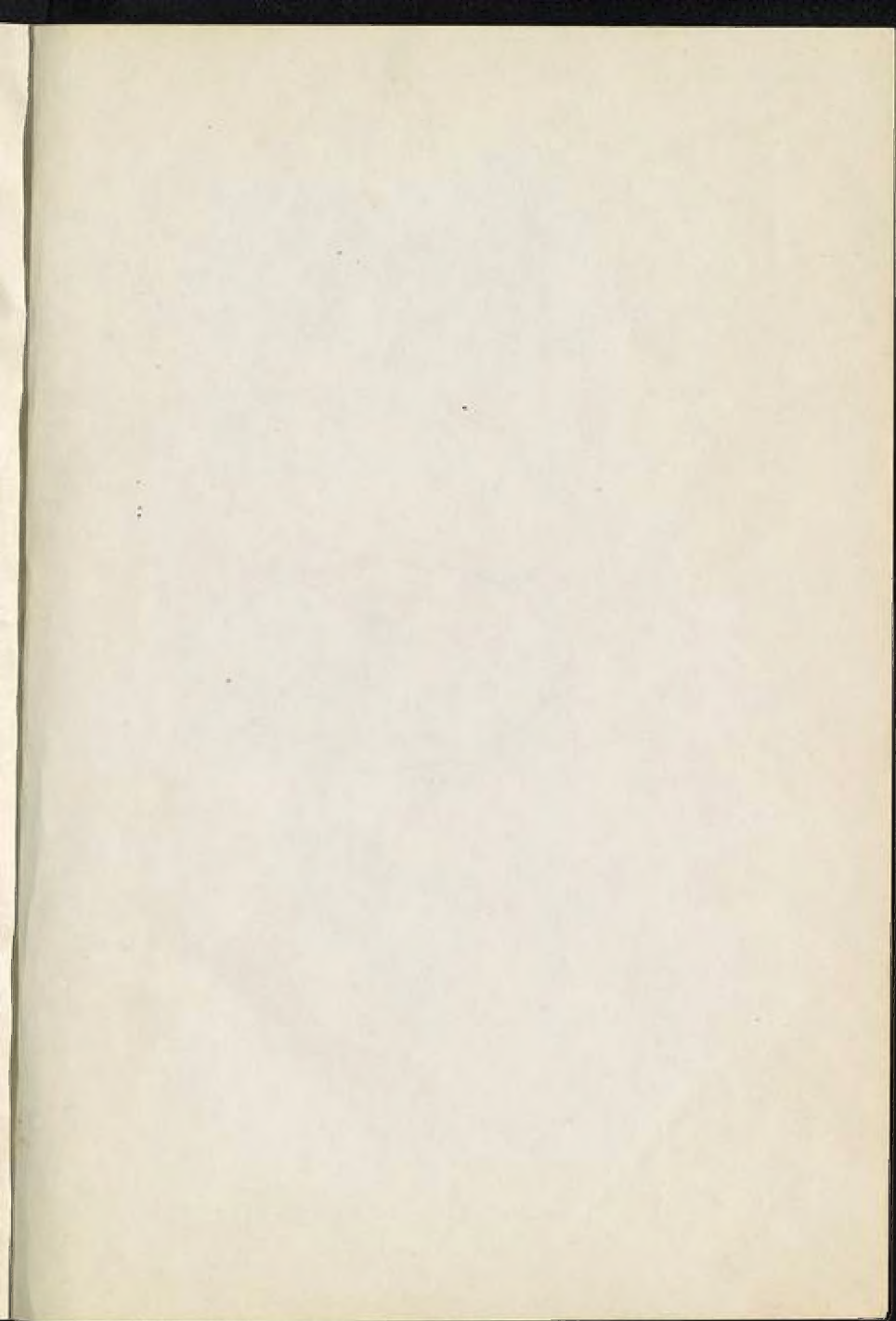
المؤرخون في مصر في القرن ١٥ م

Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES







بمئة ألف نسخة والنشر

المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادى (القرن التاسع الهجرى)

محمد مصطفى زيادة

أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب — جامعة فؤاد الأول

نسخة ثانية

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٤٩

ص ١١١



893.712

769

محتويات الكتاب

صفحة	
٨ — ل	تصدير
٣ — ٢٥	الفصل الأول — المقرئى ومعا صروه ...
٢٦ — ٤٥	الفصل الثانى — أبى المحاسن ومعا صروه ...
٤٦ — ٨٠	الفصل الثالث — ابن إياس ومعا صروه ...
٨١ — ١٠٥	الفصل الرابع — خاتمة ونقد مقارن ...
١٠٧ — ١١١	فهرس بأسماء كتب المؤرخين ...

THE HISTORY OF THE

... of the ...
... of the ...
... of the ...
... of the ...
... of the ...
... of the ...

قصير

الحاجة الشديدة إلى معجم يحوى سير الذين يرجع إليهم فضل التوجيه في المجتمع المصرى ، على مختلف الأزمنة ، أمر مفروغ منه ، والشروع فى ذلك المعجم عملٌ ينادى هل من مبتدئ ، ولست أعرف بمن استمعوا إلى هذا النداء وأصاحوا ثم استجابوا إلا نفرأ كريباً قليلاً ، والعمل ضخم يتطلب مجهوداً أضخم ، والحماسة الفردية فيه كالنقاء بصوت مرتفع فى البادية الوحشة .

وبعدنى القارىء إذا أنا قلت فى إيمان راسخ إن مشروع ذلك العمل لا يقل أهمية — فى حاضر الأمة ومستقبلها — عن مشروع مكافحة الأمية ، أو مشروع الإلزام فى التعليم الابتدائى ، فهو مثلهما نوع من المكافأة فى سبيل النهضة العامة ، وهو مثاهما كذلك فى حاجة إلى عدد من الأيدي العاملة فى صمت نشيط . وما أبرئى نفسى من إقبال على الدعوة إلى ذلك المشروع أحياناً متقطعة ، كما لا أبرئها من إدبار عن الكلام فيه أحياناً أقل تقطعا ، ولعلنى أ كفّر عن هذا وذاك بالصفحات التالية الحاوية لأخبار المؤرخين الذين عاشوا بعصر فى القرن الخامس عشر الميلادى (التاسع الهجرى) ، وحلفوا من

المؤلفات ما سوف يبقى المصدر الأول لما نحتاج من معرفة لأحوال ذلك العصر من تاريخ وثقافة ، وأدب واقتصاد ، وسياسة واجتماع ، ولا سيما إذا أضفنا إلى تلك المؤلفات ما هنالك من كتب أخرى مغمورة ، وآثار كثيرة شبه مغمورة الأوصاف في كتب الأخصائيين .

وأحب هنا أن أقرر في غير تردد أو لبس أنى لا أدعى القول الفصل في المؤرخين بمصر في القرن الخامس عشر الميلادى بهذه الفصول القليلة ، وأنى لا أعتبر نفسى ملأت فراغا كبيرا من مشروع المعجم الذى يجب أن يتوفر على ملئه مجمع من الباحثين ، إذ الصفحات التالية لانهدو أن تكون محاولة هي الأولى من نوعها ، وهي كذلك لا تعدو أن تكون معالجة لأخبار طائفة مفردة من طوائف المؤرخين في بلد ذى تاريخ مديد . والعارفون بالتأليف العلمى الحديث يدركون تمام الإدراك ، أن الموضوع الواحد في علم من العلوم كائنا ما كان ، يستطيع — بل ينبغي — أن يظل ميدانا مفتوحا للاجتهد ، والتعديل بالحذف والإضافة ، جيلا بعد جيل ، على شرط الإحسان والتدرج نحو الكمال ، والعكس غير مطلوب أو مرغوب فيه ، وهذا بديهي .

وأحب هنا كذلك أن أهنس في أذن الراغبين في الكتابة في طائفة أخرى من المؤرخين في مصر — وأرجو أن يكون من أولئك الراغبين كثرة في القيمة لا المدد — أنى لم أستمد

حقائق من كتب التراجم فحسب ، بل قرأت جميع ما وصلت إليه
بى من مؤلفات القرن الخامس عشر الميلادى بمصر فى التاريخ
وغير التاريخ - مطبوعة ومخطوطة - ، وأخرجت منها مملومات
كثيرة عن طريق المقارنة والاستنتاج ، كما عثرت على بعض
مادونت هنا من حقائق تاريخية فى غير مظانها من الكتب
المرووفة .

وللقالى أن يسأل هنا عن الغرض الذى من أجله هدف
إلى الاقتصار على الترجمة لطائفة دون غيرها من المؤرخين فى
مصر ، والجواب أنى لم أهدف بذلك إلى غرض معين . بل الواقع
أنى أعددت هذه التراجم سنة ١٩٢٧ م لتكون فصلا إضافيا
لرسالتى فى الدكتوراه بعد الاستقرار على عدد فصولها ، إذ رغب
الأستاذ الشرف وقتذاك أن أشرح له الأصول والمنابع العربية
التي استقيت منها حقائق السكثيرة ، ليكون على بينة
من أمر تلك الحقائق وأمرى ، وليبقى على درساً فى الجرح
والتعديل (historiography) ، وهى المدالة والضبط على قول
المحدثين . ثم غدوت مدرسا بعد ذلك بقسم التاريخ بكلية الآداب
بجامعة قواد الأول ، وانصرفت أنصرافا مجزواً لتدريس تاريخ
الدولتين الأيوبية والمملوكية بمصر والشام ، وأفيت هذه التراجم
خير مقدمة لدراسة المرحلة الأخيرة من التاريخ المملوكى ، فنقلتها
من الإنجليزية إلى العربية ، وأصفت إليها ما استطعت أن أضيف .

من جديد ، ونشرت معظمها بمجلة الثقافة الأسبوعية سنئى
١٩٤٠ - ١٩٤١ م . ثم كان أن ظهرت لى مادة جديدة مما تنشره
الطابع بالشرق والغرب من نقون وبحوث ، فعكفت صرة أخرى
على تعديل هذه التراجم ، وغيوت بعضها تغييراً كاملاً بالحذف
الكثير والإضافة الكثيرة ، وبذا أودعت هذه الصفحات
جميع ما جد على من فكرة ومادة فى المؤرخين بمصر فى القرن
الخامس عشر الميلادى ، وتقدمت بها للظهور فى مطبوعات لجنة
التأليف والترجمة والنشر .

ولست أريد من هذا الظهور تنويرها بتلك الفئة من المؤرخين
الغريب ، بل أريد كذلك تنبيهها إلى كتبهم التى لا يزال معظمها
فى ظلمات المخطوطات ، إما بدار الكتب الملكية فى نسخة
فريدة كاملة أو ناقصة ، وإما بمختلف مكتبات الشرق والغرب
فى نسخ نحن فى أعظم حاجة إلى اقتناء صورها . وهذه الكتب
متفاوتة القيم ، والحاجة إليها كذلك متفاوتة الدرجات ، والنطق
العملى السلم يوحى إلى الاهتمام أولاً بالأهم من تلك الكتب دون
مراجعة حجمها من حيث الكبر والصغر ، إذ ينبى أن لبعض
الكتب الصغرى من القيمة ما تقصر عنه الكبرى ^(١) . ومن أجل
هذا وذاك دعوت - صرة بعد صرة - إلى ضرورة العناية بنشر

(١) انظر ما بلى ص ٩٠ - ٩١ .

المخطوطات التي لن تستقيم كتابة التاريخ المصري بدونها في صورة مطبوعة ، ودلت على إخلاصى لهذه الدعوة بنصيب لا يزال في نظرى قليلاً .

وسوف يلحظ القارى أنى اخترت توقيت هذه التراجم وتواريخها بالسنوات الميلادية ، لا حباً فيها ، ولا هجراً للتوقيت الهجرى ، ولا إيماناً فى الترجمة . بل قصدت بذلك أن أجعل من هذا البحث الصغير مرآة لفاحية من الحياة العلمية والثقافية بمصر فى العصور الوسطى بمعناها العام ، لا بمعناها الإسلامى الخاص ، لأدل على مبلغ ما أهتمت به مصر فى التراث الإنسانى ، وأبرهن على أن المجتمع المصرى الإسلامى فى العصور الوسطى جزء هام من المجتمع البشرى فى تلك العصور . ولذا عنيت بالمقارنة هنا - فى هذه المقدمة - بين مؤرخى القرن الخامس عشر الميلادى فى مصر وأوربا ، فهذا القرن الذى أنجب المقرئى وابن حجر وابن عرب شاه وأبا المحاسن والسيوطى وابن إياس وغيرهم فى مصر ، هو الذى أنجب حنا لفيفر (Jean le Fèvre) وفرواسار (Froissart) ومونستروليه (Monstrelet) وشاستلائ (Chastellain) وبرسيغال دوكانيي (Perceval de Cagny) فى أوربا .

غير أن المقارنة لا تقف عند الأسماء لحسب ، بل تمتدى إلى الخصائص والوسائل والغايات عند المؤرخين فى مصر وإخوانهم

في أوروبا — كل على شاكلته ونضج بيئته وشخصيته وأحواله —
 فإن حجر أشبه حنا فيقر في أن كلا منهما تولى وظيفة كبيرة
 مسئولة في بلده ، وكتب وهو على تلك الوظيفة مذكرات ضافية
 في بعض صفحاتها بأسرار عصره ؛ وابن عرب شاء أشبه برسبقال
 دُكاني في أن كلا منهما نصب نفسه لكتابة تاريخ في مدح ملك
 أو سلطان ، وهذا وذاك على سبيل المثال لا الحصر . وأكثر من
 ذلك أن معظم المؤرخين في مصر وأوروبا في القرن الخامس عشر
 الميلادي استخدموا وسائل متشابهة في جمع الحقائق والأخبار
 وتدوينها ، فتعقبوا الحوادث وتفاصيلها كما يتعقب الصحفي مادته
 للصحيفة اليومية ، وابتدأوا مؤلفاتهم بأصل السكون وتاريخ
 الخليفة ، وانتهوا بالسنوات التي عاصروها وشهدوها ، على نظام
 الموسوعات القديمة (summa) ، كما دأبوا على طريقة الحوايات
 الرتيبة ، ونقلوا من كتب السابقين في غير خشية أو قصد أو
 اعتراف بالنقل ، مع الاشتغال بنظم الشعر والإجادة فيه إلى جانب
 صناعة التاريخ ^(١) .

ثم إن تاريخ القرن الخامس عشر الميلادي في مصر يشبه

(١) رجع الفضل في معظم المادة الأوربية لهذه المقارنات إلى الدكتور
 ج . و . كويلاند (G. W. Coopland) الأستاذ الزائر بكلية الآداب بجامعة
 نوذا الأول ، وهو الذي أشرت إلى سابق فضله على في دراسة الدكتوراه
 بجامعة ليفربول بإنجلترا .

أخاه في أوروبا ، بل يتبين من المقارنة بينهما أنه إذا كان ذلك القرن عصر انتقال و انقلاب في التاريخ الأوربي ، فهو عصر أكثر انتقالا و انقلابا في التاريخ المصري ، إذ شهد ذلك القرن مطلع النهضة الأوربية الكبرى ، ومصر ع البقية الباقية من الدولة الإسلامية في أسبانيا ، وحركة الكشف الأوربي في سبيل الوصول إلى الهند عن طريق المحيطين الهندي والإطلنطي ، كما شهد موجة الغزو المغولي بالشرق على بد تيمورلنك ، وهي الموجة التي هددت كيان المماليك بمصر والشام وكيان العثمانيين بآسيا الصغرى وأوروبا ، وكادت تقضي على كلٍّ من الدولتين بدوره . غير أن الدولة المملوكية ما لبثت أن أفاقت واستطاعت أن تنصق الحروب الصليبية تصفية نهائية بالاستيلاء على جزيرة قبرص ، والتفدية على ذلك بمحاولة الاستيلاء على جزيرة رودس ، كما استطاعت الدولة العثمانية أن تنصق البيزنطيين تصفية نهائية كذلك بالاستيلاء على القسطنطينية وتحويلها عاصمة للعثمانيين . على أن قصة القرن الخامس عشر الميلادي في مصر والشرق لم تنم فصولا إلا بعد قيام الدولة الصفوية بقارس ، إذ تمخض الوضع لدولى الشرق عن تنافس بين الصفويين والعثمانيين على السيادة في العالم الإسلامي ، وهو ص المماليك للمحافظة على تلك السيادة التي استقرت في دولتهم منذ إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة منتصف القرن الثالث عشر الميلادي . ثم انتهى الأمر كله حين أزال العثمانيون

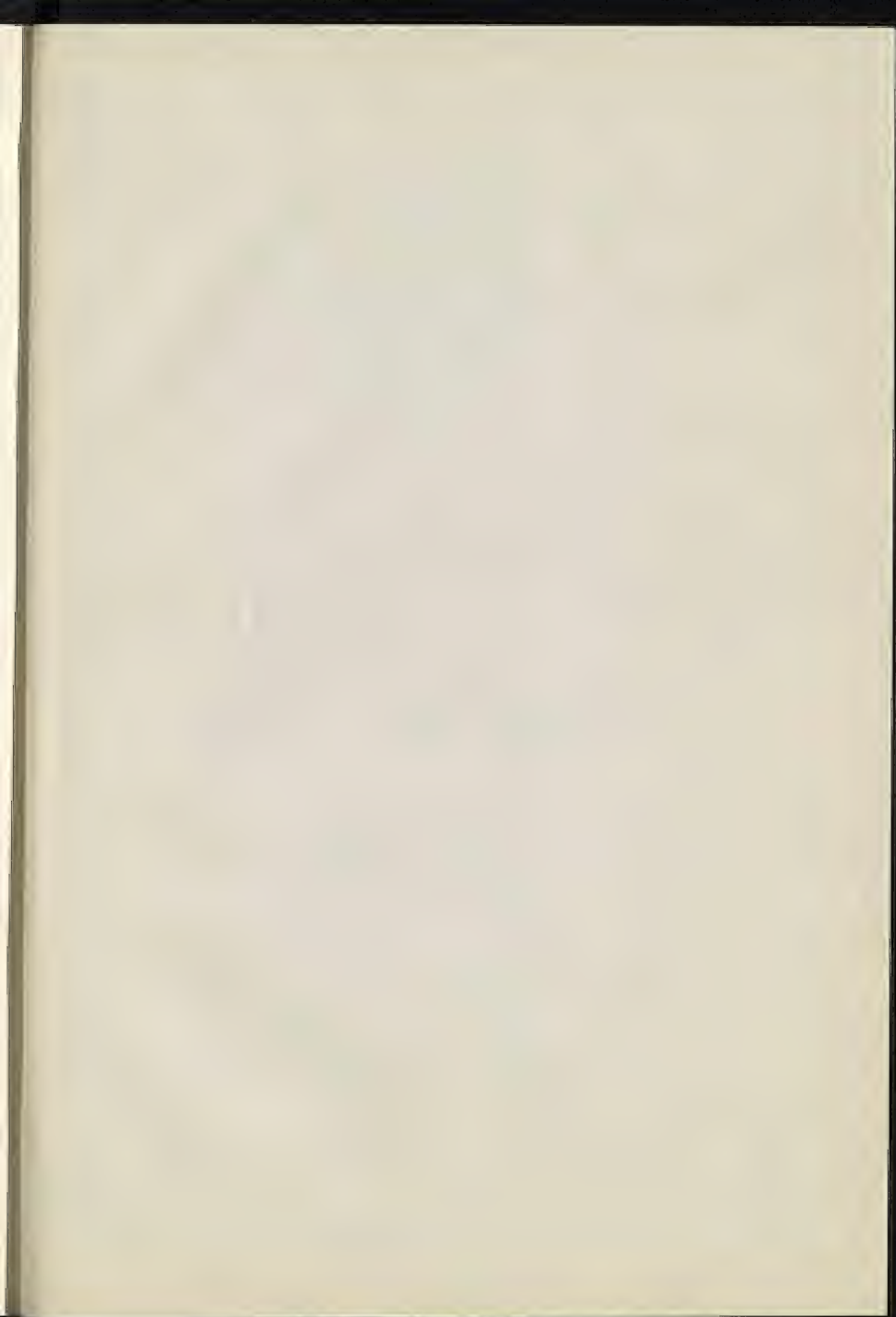
دولة الصفويين ودولة الهاليك ، وحلوا محل هذه وتلك بتحرير
والقاهرة ، وغدت القسطنطينية عاصمة المسلمين ، ونفّير محور
الارتكاز في الدولة الإسلامية أعظم تغيير .

وأودّ أن أختم هنا في نفمة من الشكر لأصحاب المكرة
والفضل في ظهور هذه التراجم مطبوعة في كتاب مستقل ،
وأولهم الدكتور أحمد أمين بك رئيس لجنة التأليف والترجمة
والنشر ، فهو الذي أشار علىّ بحمها أيام نقلتها إلى العربية ،
ثم الأستاذ محمد شفيق غربال بك وكيل وزارة المعارف وهو الذي
نصحني بتقديمها على غيرها مما عندي من ثمرات المطالعة
ومجاني المحاضرة ، ثم الأستاذ عبد الحميد العبادي بك ، عميد كلية
الآداب بجامعة فاروق الأول ، فهو الذي قرأ هذه الصفحات وأشار
بتمديد بضع من عباراتها قبل إنفاذها للطبع . وأودّ كذلك
أن أشكر نلميذى وصديقى حسن حبشى وأحمد عيسى ، فشكل
منهما فضل في ظهور هذا الكتاب ، إذ ساعدنى أولهما في الترجمة
الأولى من الإنجليزية إلى العربية ، وقام ثانيهما على ترتيب فهرس
المؤلفات الوارد هنا بمد العناية ، كما جهد مع مطبعة اللجنة على أن
يخرج هذا الكتاب في صورة جديرة بالقارى العربى الحديث .

محمد مصطفى زيادة

مصر الجديدة } ٢٦ جادى الأولى سنة ١٣٦٨ هـ .
 } ٢٦ مارس سنة ١٩٤٩ م .

المؤرخون في مصر
في القرن الخامس عشر الميلادى
(القرن التاسع الهجرى)



الفصل الأول

المقريزي ومعاصروه

ربما دلّ البحث المقارن في عصور التاريخ — وهو ميدانٌ بكر لاستجلاء الأسس العامة في الحضارة الإنسانية — على أن القرن الخامس عشر الميلادي ، أي القرن التاسع الهجري تقريباً ، أهم العصور التاريخية عند الإطلاق ، بسبب ما بدا فيه من عناصر توجيهية وأحداث مؤذنة بتغيير أحوال الدول ، والجماعات والأفراد ، بالغرب والشرق سواء .

وكفي دليلاً هنا على صحة هذا الفرض التاريخي أن الأوربيين مضوا جاهدين أن يصلوا مباشرة إلى الهند وتجارتها طول هذا القرن ، حتى إذا وصل البرتغاليون منهم إلى الشواطئ الهندية صار مصير الشرق كله في كفة المقادير العاجلة . ولم يقف الأمر عند هذا الحد البعيد ، بل عثر الأوربيون حوالى ذلك الوقت على أرض أخرى حسبوها الناحية الغربية من الهند ، وسما أهلها الهنود الحمر ، ثم استقرّوا على تسمية تلك الأرض وسكانها أمريكا والأمريكيين ، ودّأوا وجوههم شطرها وشطر الهند الحقيقية في غف لا هودة فيه ونهم شديد ، مما يرجع كله في

الأصل إلى القرن الخامس عشر الميلادي وحوادثه .
 وللمؤرخين في مصر في ذلك القرن ظاهرة توجب الالتفات ،
 وهي في الواقع برهان على بدء العالم الإسلامي في شيء من الإفاقة
 لفهم كيانه ، ولعل أكبر دليل على وجود تلك الظاهرة تاريخ
 ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر ، لاسيما
 الجزء الأول منه ، وهو الجزء المعروف باسم المقدمة ، إذ يرى
 القاري^(١) بصفحاته الافتتاحية تعريفا أخذًا للتاريخ بأنه " في
 ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول ، والسوابق من
 القرون الأول . . . ، وفي باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات
 ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق^(٢) " .
 والواقع أن ابن خلدون يشير إلى العلل والكيفيات ، والأسباب
 والنتائج ، بتلك الصفحات الافتتاحية إشارات كثيرة ، مما يدل
 على فقهه التام للتاريخ بالمعنى الحديث ، كما أنه يشير إلى ما يجب
 أن يتدرج به المشتغل بالتاريخ من المؤهلات حين يقول إن
 المؤرخ الصالح " محتاج إلى مأخذ متعددة ، ومعارف متنوعة ،
 وحسن نظر وثبت ، يفضيان بصاحبهما إلى الحق ، وينكبان به
 عن الزلات والمغالط ، لأن الإخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ،
 ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة ، وطبيعة العمران والأحوال

(١) ابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر — طبعة

بولاق — ج ١ ، ص ٣ .

في الاجتماع الإنساني ، ولا قيس الغائب منها بالشاهد ، والحاضر بالذهاب ، فرعالم يؤمن فيها من المثور ومزلة القدم ، والحيد عن جادة الصدق ... (١) "

كتب ابن خلدون تاريخه بعد أن تنقل في البلاد الإسلامية بالأندلس والمغرب ، وعاش في بلاط سلاطينها المسلمين ، ونقلب في خدمتهم ذواينهم ، أواخر القرن الرابع عشر الميلادي ، كما سافر لأحد أولئك السلاطين ، وهو محمد الخامس سلطان غرناطة ، عند بيتر (Pietro) ملك قشتالة المسيحية ، وبذا شهد بنفسه أحوال الكثير من الدول عن كثب ، ولس بيده عوامل التدهور الناشئة أظفارها بين المسلمين والمسلمين ، مما جعل لكتابيه على وجه التعميم ، والمقدمة على وجه التخصيص ، قيمة تاريخية فريدة . ثم وفد ابن خلدون إلى مصر سنة ١٣٨٢ م ، وكان انتهى من تأليف كتابه قبل ذلك ببضع سنين ، فأقام بالإسكندرية والقاهرة إقامات متقطعة ، وحج أكثر من مرة ، ودرس بالجامع الأزهر ، والمدرسة القمحية وموضعها قرب جامع عمرو ، بل تولى منصب قاضي القضاة المالكية بمصر ، كما رافق الحملة المملوكية التي قادها السلطان فرج إلى الشام سنة ١٤٠١ م لدفع نيمور لنك عن دمشق ، وشارك في وفد المفاوضة للصالح بين الدولتين المملوكية والمغولية .

(١) ابن خلدون : كتاب العبر وديوان المتبدا والخبر — طبعة

بولاق — ج ١ ، ص ٧ .

أما منبع الأهمية في هذه التفاصيل الخاصة بحياة ابن خلدون ، فهو أنها تنفي* بأصناف التجارب التي تمرس بها وأودع منها في كتابه ، كما أنها تدلّ على اتصاله الطويل بكثير من العلماء والمؤرخين في مصر والشام وغيرها من البلاد ، بل تدلّ المراجع على أن اتصالاته بعلماء مصر ومؤرخيها بالذات أدت إلى تكوين مدرسة حوله من المعجبين به والمتلمذين على طريقته^(١) ، كما أدت إلى قيام فئة من الفاطميين لقامه^(٢) والمنددين بمقدريته . وإذا لم يتسع البحث هنا لأكثر من هذه الإشارة العابرة ، فإن في أخبار تلاميذه ، والتابعين له بإحسان وغير إحسان ، بهاما على أن قصة المؤرخين في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي لا تتم إلا بذكر ابن خلدون والإشارة إلى فضله ، ولو لم يقسم الأمر لشيء سوى كلمات معدودة .

أما أول أولئك التلاميذ فهو أحمد بن علي المقرئ ، الذي ولد بالقاهرة سنة ١٣٦٤ م ، بحارة برجوان بقسم الجالية الحالي ، والمقصود بالحارة هنا الفندق أو الخان أو الوكالة على حد المصطلح المصري في العصور الوسطى ، أو المهارة السكينة على حد التعبير الحديث ، ولا زال اسمه باللفظ الحارة بالمعنى القديم سائداً ببلاد الشام . وجاءت أسرة المقرئ إلى القاهرة من بعلبك في حياة أبيه

(١) انظر مايلي ص ١٣ — ١٥ .

(٢) انظر مايلي .

على ، وأصل نسبتها يرجع إلى حارة المقارزة بتلك المدينة الشامية القديمة ، ولا يسع الباحث هنا إلا أن يشير إلى شبه المحفوظ بين هذه التسمية ولفظ مقرزي (Maccarese) ، وهي جهة بإيطاليا قرب^(١) روما ، مما يحتمل معه أن تلك الحارة البعلبكية كانت سكناً لجالية من الجاليات الإيطالية التي وفدت للتجارة ببلاد الشرق الأدنى زمن الحروب الصليبية ، وأن أسرة المقرزي اكتسبت هذه التسمية لحولها بتلك الحارة^(٢) بعد خلوها من أهلها الأصليين .

ومهما يكن فالمعروف المقطوع به أن أحمد بن علي المقرزي نشأ قاهرياً ، بناحية من أعظم نواحي القاهرة امتلاءً بال عمران والصخب وضوضاء الحياة^(٣) ، وأن جده لأمه ، واسمه ابن الصايغ الحنفى ، هو الذى كفل تعليمه ، لضيق حال أبيه على فيما

(١) لم يستطع كاتب هذه السطور أن يجد تعريفاً لهذه الجهة بمختلف المراجع الجغرافية والموسوعات ، ما عدا أطلس النيمس الجديد (Time's Modern Atlas) ، حيث ورد بفهرسه ما نصه (Maccarese, torr. environs di Rome) وربما كان من لطيف الاتفاق أن لفظ (macariste) فى الفرنسية وهو شديد الشبه بلفظ المقرزي اسم لمجموعة من النباتات انظر : (Nouvelle Larousse Illustré).

(٢) جهد المؤلف أن يعثر على تلك الحارة حين زيارته بعلبك ، ولكنه لم يستطع أن يتعرف عليها أو على موضعها من البلدة الحالية .

(٣) انظر المقرزي : اللواعظ والاعتبار — طبعة بولاق — ج ٢ ،

يبدو قبل أن يصبح من أصحاب الأملاك والعقار^(١) . ولذا أخذ
 جده بتثنيته على أصول الحنفية ، وانكب هو على الدرس
 والتحصيل تحت إرشاد أساتذة عصره ، وأظهر نجابة ومقدرة .
 ثم مات ابن الصايغ سنة ١٣٨٤ م ، فترك المقرئى مذهب
 الحنفية ، وانتقل إلى الشافعية ، ودرس الفقه دراسة واسعة ،
 وأخذ من ثم يهاجم الحنفية في عنف استوجب لوم معاصريه له .
 ثم التحق المقرئى بالخدم الحكومية ، فكان أول عهده بها
 ديوان الإنشاء بالقلعة ، حيث ظل يعمل موقماً — أى كاتباً —
 حتى سنة ١٣٦٨ م^(٢) ؛ ثم غدا بعد ذلك نائباً من نواب الحكم —
 أى قاضياً — عند قاضى القضاة الشافعية ، فأماماً لجامع الحاكم ،
 ومدرساً للحديث بالدرسة المؤيدية . وفى سنة ١٣٩٨ م اختاره
 السلطان برقوق (وكان خفياً به مشجعاً إياه) لوظيفة محتسب
 القاهرة والوجه البحرى ، فتولاها ثم تنحى عنها صريتين فى عامين .
 وفى ذلك الوقت تزوج المقرئى وأنجب ، إذ المعروف أن بنتاً له
 ماتت بالطاعون الذى اجتاح القاهرة وسائر البلاد المصرية ،
 سنة ١٤٠٣ م .

(١) نفس المؤلف والمرجع والجزء ، ج ٢ ، ص ٩٢ ، ١٠٥ .

(٢) انظر المقرئى (المواعظ والاعتبار — طبعة القاهرة —
 ج ٢ ، ص ٢٢٥) حيث ذكر المؤلف أنه ظل فى وظيفة الموقع بديوان
 الإنشاء بالقلعة حتى تلك السنة .

وفي سنة ١٤٠٨ م انتقل المقرئ إلى دمشق ، ليتولى النظر
على أوقاف القلاسية والمارستان النورى ، ولما قام بتدريس الحديث
بالمدرستين الأشرافية والإقبالية هناك . ثم لم يلبث أن عينه
السلطان فرج بن برقوق كذلك نائبا للحكم بدمشق ، استيفاء
لشرط الواقف أن يكون المنتظرون على أوقافها قضاء بها . لكن
المقرئ أبى قبول هذا الشرف ، على الرغم من عرض الوظيفة عليه
مرارا من قبل السلطان ، ويظهر أنه سئم الخدم الحكومية
وضاق بتكاليفها ، وأنه مَلَكَ من الموارد التى ربما ورثها عن أهله
ما أغناه عن تضيق وقته فى كسب العيش ، عن طريق الدواوين
ومجالس الحكم .

وكيفما كان الأمر ترك المقرئ دمشق وأعماله بها بعد
إقامته عليها عشر سنوات تقريبا ، ورجع إلى القاهرة خاليا من
عمل أو وظيفة ، ليتوفر على الدرس والاشتغال بالعلم ، ولا سيما
التاريخ . ومن أجل ذلك رحل المقرئ وعائلته سنة ١٤٣٠ م
حاجا إلى مكة ، وكان مجاوراً بها قبلاً لإبان طلبه العلم ؛ بيد أنه
ظل مقبلاً بمكة تلك المرة الثانية حتى سنة ١٤٣٥ م ، واشتغل بها
فى تلك الأثناء بتدريس الحديث وبالتأليف فى التاريخ . ثم عاد
المقرئ من بعده إلى القاهرة ، حيث أمضى بقية حياته بحارة
رجوان التى ما برح منذ شبابه يفاخر بها على سائر الحارات ، ويظهر

أنه جعل من منزله بها مكانا لمدارسة تلاميذه ، وللتأليف الكثير في مختلف علوم عصره ^(١).

بدأ المقرئى نشاطه العلمى الضخم بظهور تاريخ القاهرة السسمى المواعظ والاعتبار يذكر الخطط والآثار ، وهو كتاب عنى فيه صاحبه قبل كل شىء بدراسة الخطط حتى عرف بهذه التسمية حتى الآن ؛ وكان تأليفه إياه ما بين عامى ١٤١٧ و ١٤٣٦ م . على أنه يظهر أن المقرئى اعتمد — إلى حد كبير — فى تأليف هذا الكتاب الزاخر — الذى يعدّ نخر مؤلفاته — على كتاب صنفه قبله الأوحدى المؤرخ ، فنقل منه دون أن يشير إليه أو يترف بأخذه منه ، ورماء السخاوى من أجل ذلك بقوله إن كتاب الخطط " مفيد لكونه (أى المقرئى) ظفر بمسودة الأوحدى فأخذها وزادها زوائد غير طائلة ^(٢) " ، بل ذكر السخاوى فى موضع آخر إن الأوحدى " كتب مسودة كبيرة لخطط مصر والقاهرة ، نسب فيها وأفاد وأجاد ، وبيّض بعضها ، فبيّضها التقي المقرئى ، ونسبها لنفسه مع زيادات ^(٣) " ، وأن المقرئى نفسه اعترف بانتفاعه بتلك المسودات ^(٤) . ولم يستطع الإخصائيون من مستشرقى القرن

(١) أبو الهاسن : كتاب النجوم الزاهرة — طبعة دار الكتب الملكية — ج ٨ ، ص ٢١٨ .

(٢) السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، ص ٢٢ .

(٣) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ١ ، ص ٣٥٨ — ٣٥٩ .

(٤) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ١ ، ص ٣٥٩ .

التاسع عشر الميلادى أن يدفعوا تلك التهمة تماماً عن المقرزى ، أو يدلى أحدهم فيها برأى حاسم ، بل قال بصدددها كاترمير (Quatremère) الفرنسى إن من الفطنة والصواب أن نسكت عن هذه القضية ، وأن نحذر الحكم فيها برأى قاطع^(١) . على أنه مما يسترعى النظر أن المقرزى نفسه لم يدفع هذه التهمة بشيء قاطع ، ولم يستطع أن يدلى فى سياق الرد عليها بأكثر من قوله "حسب العالم أن يعلم ما قيل — ويقف عليه"^(٢) . يضاف إلى ذلك أنه توجد بكتاب المواعظ شواهد داخلية تؤدى بالباحث إلى كثير من الشك على الأقل ، ومنها خلو بعض كتب المقرزى المنأخرة من عبارات واردة بكتاب المواعظ ، مثل إدلانه فى نسب الأكراد والأيوبيين برأى هام ، وعدم تكراره لهذا الرأى على أهميته فى كتاب السلوك^(٣) ، ومنها كذلك ما جاء بكتاب المواعظ بصدد رباط البغدادية للنساء بالقاهرة ، حيث ورد مانعه : "وآخر من أدركنا فيه الشيخة . . . فاطمة بنت عباس"^(٤) البغدادية ،

(١) انظر (Quatremère : Mamlouks. I., p. XIII)

(٢) المقرزى : المواعظ والاعتبار — طبعة بولاق — ج ١ ، ص ١٢ ، وكذلك ج ٢ ، ص ٢٥٦ ، حيث أشار المقرزى إلى اتصاله بالأوحدى .
(٣) انظر مقدمتى لأقسام الثالث من الجزء الأول من كتاب السلوك للمقرزى ، صفحة ١ — ك .

(٤) المقرزى : كتاب المواعظ والاعتبار — طبعة بولاق ج ٢ ، ص ٤٢٨ . انظر كذلك ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٣ ، ص ٢٢٦ ، حيث ورد اسم هذه السيدة الفاضلة فاطمة بنت عباس .

توفيت في ذي الحجة سنة أربع عشرة وسبعمائة“ ، وهذا التاريخ — إن صح المتن وصحت الوفاة — إنما يقع قبل مولد المقرئ (والأوحدى كذلك) بأزيد من خمسين سنة^(١) .

ومهما يكن من شيء ، فالمقرئ صدر هذا الكتاب الكبير بمقدمة جغرافية تاريخية مسببة ، وتناول المدن والآثار المصرية القديمة والوسيطة بوصف دقيق ، مبتدئاً بالإسكندرية ، وعنى عناية خاصة بمخطط الفسطاط والقاهرة طبعاً ، فجاء الجزء الثاني منه — وهو نصف الكتاب — ثبناً زائلاً بأحوال القاهرة وأخبارها ، وطرق المعيشة بأرجائها الواسعة في العصور الوسطى . ثم أتبع المقرئ هذا الكتاب بتأليف في تاريخ الفسطاط ، سماه عقد جواهر الأسفاط من أخبار مدينة الفسطاط ، وهو في الواقع تاريخ لمصر الإسلامية في عهد الولاة . وأنبأ المقرئ ذلك بكتاب في دولة الفاطميين بمصر ، واسمه اتعاظ الخلفاء بأخبار الخلفاء^(٢) ، حتى إذا فرغ منه فكر في تأليف كتاب يكون تاريخاً للأيوبيين والمماليك ، ليتم به سلسلة مؤلفاته في

(١) يلاحظ أن هذه العبارة منقولة من الطبعة الكاملة الممدودة أحسن الطبعين المعروفين لهذا الكتاب ، وهي عبارة تتطلب تحقيقاً دقيقاً بعد مقابلة النسخ المخطوطة بعضها على بعض ، ولا يسع كاتب هذا إلا أن يتعنى للسبب جاستون فبت التوفيق في إتمام طبخته الفاخرة لذلك الكتاب العظيم .
(٢) نشر الدكتور جمال الدين الشيال هذا الكتاب حديثاً في طبعة مزيعة عن طبخته الأوربية القديمة . (دار الفكر العربي ، ١٩٤٩) .

التاريخ المصرى الوسيط ، من الفتح العربى إلى زمنه ، فكان كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، وهو الكتاب الذى غدا أساساً رئيساً لكل التواريخ المصرية فى عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية الأولى والثانية .

وبلاحظ أن المقرئى كتب المؤلفات المتقدمة لتكون ذبلاً على كتاب المواعظ والاعتبار ، وأنه قصد فى كل منها أن يشرح ما أجمله من أخبار الدول الإسلامية المصرية التى تناولها قبلاً فى بكر مؤلفاته . ومن أجل ذلك كذلك شرع المقرئى فى التأليف فى كتب التراجم والسير ، وأوغل فى مشروعين كبيرين من هذا النوع من الكتابة ، غير أنه لم يتعمهما لضخامة المقياس الذى بنى عليه كلا منهما . أما أول هذين المشروعين ، فهو كتاب المقفى الكبير ، وكان المقصود به أن يكون معجماً لتراجم حكام مصر ورجالها من المسلمين والنصارى منذ أقدم العصور إلى ما قبل عصره ، وقد رآه أن يكون فى ثمانين مجلداً ، ولم يستطع أن ينجز منها سوى ستة عشر فقط . أما ثانيهما ، وهو كتاب درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة ، فكان الغرض منه أن يكون معجماً لتراجم معاصريه ، غير أن المقرئى تركه كذلك دون أن يفرغ من مراجعته .

وصرف المقرئى كثيراً من نشاطه الجهد فى التاريخ الإسلامى العام ، فألف فى السيرة النبوية ، وفى قبائل العرب التى

نزلت مصر منذ الفتح ، وفي جغرافية حضرموت بجنوب شبه جزيرة العرب ، وفي الدريالات الإسلامية بالحبشة ، كما أنهم بنصيب وافر في التاريخ الاقتصادي والنميات (Numsimatics) والتاريخ الاجتماعي ، حين ألف في الأوزان والآكيل ، والمقاييس والنقود ، وفي تاريخ المجاعات والطواعين . وربما كان أهم مؤلفاته هذه كتاب النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم ، وكتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة ، إذ رجّع القرظي ، في الكتاب الأول من هذين الكتابين ، أمر الفرقة والتنافس على الخلافة بين الأمويين والهاشميين إلى عصبية الجاهلية القديمة ، وأهل جانب الحوادث المريرة والحروب المستحرة ، والشخصيات المتنافرة ، التي لم تعد كلها أن تكون أسباباً طارئة على حين ذلك الخلاف وجبروته ، مترسماً في ذلك سبيل ابن خلدون وفلسفته في المقدمة^(١) . أما الكتاب الثاني من هذين الكتابين فتناول القرظي فيه تاريخ المجاعات التي نزلت بمصر منذ أقدم العصور إلى سنة ١٤٠٥ م ، وهي السنة التي ألف فيها ذلك الكتاب ، وأدى به البحث إلى أن أسباب ما ينزل بالناس من مجاعات وطواعين وأغلبية إنما هو "سوء تدبير الزعماء والحكام ، وغفلتهم عن النظر في مصالح العباد"^(٢) ، وهو تخرج اقتصادي

(١) ابن خلدون : المقدمة — طبعة بولاق ، ص ١٠٧ ، وما بعدها .

(٢) القرظي : إغاثة الأمة بكشف الغمة — نصر زيادة والشيال ، ص ٤ .

سليم مصدره كذلك مقدمة ابن خلدون وما جاء بها في فصل الجباية وسبب قتلها وكثرتها ، وما يليه من الفصول المتفرعة على هذا المعنى^(١) ، بل إن تأثير ابن خلدون على المقرئ في تأليف هذا الكتاب بالذات تعدى إلى طريقة العرض والأسلوب وفوائح الأبواب وخواتيمها ، فضلا عن الفكرة العامة^(٢) . والحقيقة أن المقرئ تأثر بابن خلدون ومقدمته في هذين الكتابين وغيرهما من مؤلفاته تأثراً فاق حد الإعجاب ، وآية ذلك وصفه للمقدمة بأنها "لم يعمل مثالها ، وإنه لعزير أن ينال مجتهد مثالها ، إذ هي زينة المعارف والعلوم ، ونتيجة العقول السليمة والفهوم ، توقف على كنهه الأشياء ، وتعرف حقيقة الحوادث والأنباء ، وتبصر عن حال الوجود ، وتنبئ عن أصل كل موجود ..."^(٣) ، وهو وصف يدل في وضوح على دراسة

(١) ابن خلدون : المقدمة — طبعة بولاق ، ص ٢٣٣ ، وما بعدها .

(٢) المقرئ . إغاثة الأمة بكشف الغمة — نشر زيادة والشبال صفحة د .

(٣) السخاوي . الضوء اللامع ، ج ٤ ، ص ١٤٤ . انظر المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٤ ، حيث توجد ملاحظة عابرة إلى ما كان من عظيم الصلة والصداقة بين المقرئ وابن خلدون ، وانظر كذلك المقرئ : المواعظ والاعتبار — طبعة بولاق — ج ١ ، ص ٥٠ ، حيث أشار المقرئ إلى ابن خلدون لإشارة التلميذ لأستاذه ، ولم يصرح أن يستشهد بعبارة لاذعة له في وصف المصريين ، ونصها حسبما ورد بنفس المرجع والجزء والصفحة : "قال لي شيخنا الأستاذ أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون رحمه الله تعالى : أهل مصر كأنهم فرغوا من [يوم] الحساب " .

المقرئى لمقدمة ابن خلدون دراسة وافية ، كما يدل على دقة فهمه
لمحتوياتها المتنوعة ، وتقديره لقيمتها العلمية بالقياس إلى غيرها
مما عرفه خلال قراءاته الدائبة التى يبدو أنها لم تنقطع إلا بوفاته
سنة ١٤٤٢ م .

والواقع أن المقرئى كان واسع القراءة والمعرفة والاطلاع ،
كثير الدأب والناثرة ، كما شهد بذلك معاصروه ، وكما يشهد به
ما خلفه من مؤلفات لم يرَ الضوء بمضما حتى الآن ؛ وإن نظرة
واحدة إلى ثبوت مؤلفاته لكفيلة بإيقافنا على إلمامه بالخطوط والتاريخ
والترجمة ، والسكة والأوزان والمقاييس كما تقدم ، وهذا فضلاً
عن معرفته بعلم الحشرات^(١) والمعادن والطب والموسيقى ، وعلم
السلام والمقائد والتوحيد والحديث . لكن أعظم اهتمامه كان
موجهاً نحو التاريخ ، لأنه كان مغرماً به ، معنياً بتحقيقه والتأليف
فيه ، فعرف منه جزءاً كبيراً معرفة تامة ، وحفظ منه كثيراً
عن ظهر قلب . وأقر بذلك كله تلميذه الذى عرف معاصره
من المؤرخين ، وخليفته الذى اقتفى أثره ومنهجه فى كتابة
التاريخ ، وهو أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى ، حين قال
فى كتاب النجوم الزاهرة : " وفى الجملة هو أعظم من رأيناه فى
علم التاريخ وضروريه ، مع معرفتى لمن عاصره من علماء المؤرخين ،

(١) انظر كتاب نحل عبر النحل الذى نشره الدكتور جمال الدين
الشيال (مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٤٦) .

والفرق بينهم ظاهر ، وليس في التعصب ^(١) فائدة .

أما عن أخلاق المقرئ الشخصية ، فالمعاصرون له أجمعوا على أنه عاش رجلاً فاضلاً ديناً ، مجدداً أميناً في عمله ، حتى إن السخاوي — مع شدته في نقد كتاب المواعظ والاعتبار — يقول إن المقرئ كان على جانب عظيم من "حسن الخلق ، وكرم العهد ، وكثرة القواصع ، وعلو الهمة لمن يقصد ، والمحبة في المذاكرة ، والمداومة على التهجّد والأوراد ، وحسن الصلاة ، ومزيد الطمأنينة ، والملازمة لبيته" ؛ وإله "جهدت سيرته في مباشراته" ^(٢) ، أي في الوظائف التي تولّاها قبل أن ينصرف إلى حياة الدرس الخالية .

وحفل عصر المقرئ بكثير من المشتغلين بالتاريخ ، وربما بدا بعضهم أوسع منه معرفة بدخائل ذلك العصر ، نظراً لتقليهم في الوظائف الكبرى بالدولة المصرية ، ومن هؤلاء ابن حجر والعيني وخليل بن شاهين وابن عرب شاه والخالدي .

أما أحمد بن حجر فولده بمصر القديمة سنة ١٣٧٣ م ، وتوفي أبوه — وهو محدث "نابه" في زمنه — ولما يبلغ أحمد من العمر سنتين ، فنشأ يتيماً في كنف أحد أوصيائه ، ودخل الكتاب بعد إكمال

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) ، ج ٧ ،

ص ٢٧٩ .

(٢) السخاوي : التبر السبوك ، ص ٢٢ ، ٢٣ — ٢٤ .

خمس سنين ، واستظهر القرآن وهو ابن تسع ، ويقال إنه حفظ سورة صريم في يوم واحد ، بل قيل إنه بلغ من قوة الاستدكار أنه كان يحفظ الصحيفة من الكتاب بعد مرتين ، الأولى تصحيحاً والثانية قراءة في نفسه ، ثم يمرضها عن ظهر قلب في الثالثة . وسافر ابن حجر إلى مكة وجاور بها وهو في سن الحادية عشرة ، فسمع بها وتفقه ، ثم حبب إليه الحديث وانصرف إلى دراسته انصرفاً كلياً بالحجاز والشام ومصر واليمن ، حتى صار حجة عارفاً بالعوالي والنوازل . واشتهر ابن حجر في عالم التدريس والفتيا ، وذاعت شهرته مؤلفاته الضخمة المتعددة في الحديث والفقه والتراجم ، وأشهرها كتابه المسمى فتح الباري في شرح البخاري ، وهو في ثلاثة عشر مجلداً ، ولولم يكن له غيره من المؤلفات الكفى للتنويه بما لو كعبه ، على قول معاصريه^(١) والمتفهمين به من المحدثين حتى الوقت الحاضر . وبلغ من شهرة هذا الكتاب أن السلطان شاه رخ بن تيمورلنك ونهره من ملوك البلاد الإسلامية بعثوا في طلبه يسؤال علمائهم ، وأن نسخاً منه بيعت بثلاثمائة دينار . وبدأ ابن حجر هذا الكتاب سنة ١٤١٠ م ، فلما فرغ منه أقيمت ختمته وليمة كبيرة بمنظرة التاج والسبع وجوه بأرض منية السيرج الحالية ، أقيمت فيها المدايح نظمها وتقرأ ، وحضرها ابن السلطان جقمق والأمراء ورجال الأدب ، ومن بينهم المقرئ

(١) ابن حجر الدرر الكامنة ، ج ٤ ، ص ٤٩٥ .

الذى كانت صداقة ابن حجر له وإعجابه بتأليفه جدّ عظيمين ،
حتى إن ابن حجر نفسه لم يكتف بالأطنا ب في مدح القرزى
حين ترجم له في كتابه المجمع المؤسس والمعجم المفهرس^(١) ،
بل عرض عليه ما كتبه قبل أن يأذن للناسخ بنسخه .

وعاش ابن حجر شخصية بارزة في مجالس الدولة المملوكية
الثانية ، وذلك منذ سنة ١٤٢٤ م ، حين ولى منصب قاضى القضاة
الشافعية ، وهو أكبر مناصب القضاة وقتذاك ، ولصاحبه الأولوية
على سائر قضاة المذهب ، لسكون مذهب الشافعى هو المذهب الرسمى
للدولة . وظل ابن حجر متقلدا هذا المنصب الخطير مدة إحدى
وعشرين سنة ، على أنه عزل عنه وأعيد إليه مراراً في أثناء تلك الفترة
الطويلة ، لاستقلاله فى الرأى واستمساكه بكلمة الحق ، مع اين
الجانب والاحتياط والتواضع ، والميل إلى النكت اللطيفة والنوادر
الظريفة . ولذا جاءت حواشيه — أو مذكراته بعبارة أدق — وهى
المسماة بإنباء القصر فى أبناء القصر مرآة لشخصيته الفذة ، وصفاته
الحمودة ، فضلاً عن أنها من أهم المراجع الأصلية لعصره ، إذ كثيراً
ما يعنى فيها المؤلف بالقارى إلى ما وراء الستار ، فينبى ما استغلّق
فهمه من حوادث الدولة وسياساتها العامة بالمراجع الأخرى . وبدأ
ابن حجر هذه المذكرات بسنة ميلاده ، وهى لذلك قاصرة
على تاريخ الدولة المملوكية فى حياته ، وتنبه فى ذلك — إلى حد
(١) توجد نسخة من هذا الكتاب بدار الكتب الملكية المصرية .

صغير - كتاب الاعتبار لابن منقذ الشيرازي ؛ وربما كان أدل ما فيها على صفاته الشخصية وأحاسيسه الرقيقة أنه حرص مثلاً على ذكر حال الورد كلما وصل إلى موسم الربيع والأزهار في جوليائه ، حتى وفاته سنة ١٤٤٩ م . .

وكان العيني كذلك من المؤرخين المشهورين في عصره ؛ ومولده قبيل المقرزي بأربع سنوات في عينتاب ، وهي بلدة صغيرة بين حلب وأنطاكية . وجاء العيني إلى القاهرة أواخر القرن الثامن الهجري ، واختير لوظيفة المحتسب بالقاهرة والوجه البحري سنة ١٣٩٩ م ، بدلاً من المقرزي ، فظل هذا مغاضباً لذلك من أجل ذلك - في أكبر الظن - طوال أيام حياته . وولى العيني تلك الوظيفة عدة مرات بين عامي ١٣٩٩ و ١٤٤٢ م ، وهذا فضلاً عن توليته في الوقت نفسه أكثر من المناصب الرفيعة ، ولا سيما زمن السلطان برسباي الذي جعله قاضي القضاة الحنفية سنة ١٤٢٥ م . وبقي العيني شاغلاً لتلك الوظيفة الكبيرة مع الحسبة مدة اثنتي عشرة سنة متوالية ، وأضيف إليه في أثنائها نظر الأحباس بالقاهرة ، ولم يكن لذلك التمدد في الوظائف شبيه أو سابقة في تاريخ الإدارة في مصر الإسلامية ، على قول السخاوي وغيره من المعاصرين .

وغدا تمكن العيني من اللغة التركية أكبر عون على ما تهيناً له من حظوة لدى سلاطين المماليك ، وعلى الأخص برسباي الذي

لم يعرف من العربية إلا القليل ، فكان الميمني يجلس إلى حضرته ساعات الليل ، ليفسر له غوامض الفقه والشريعة ، ويقراً عليه من حولياته التي كتبها بالعربية ، وهي كتاب عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، ثم يترجمها له إلى التركية رأساً . وهذا الكتاب من أعظم ما كتب الميمني في التاريخ ، وهو كذلك من أهم ما أهمله القوامون على نشر المخطوطات العربية وإحيائها حتى الآن . ومما خلفه الميمني من المؤلفات كذلك ، (وبعضها بالتركية) شرح مطول في الحديث ، سماه باسم عمدة القارى في شرح البخارى ، وانتقى فيه من شرح ابن حجر ، بحيث نقل منه صفحات كاملة متتابعة ، ولم يتحرج عن معارضته كلما استطاع إلى ذلك من وسيلة أو مناسبة .

وإن في حياة الميمني لمشاهد رائعة ، ومعلومات قيمة ، بصدد علاقات الصقوة من الأدباء والعلماء بسلاطين المايك في ذلك العصر . غير أنه يظهر أن الميمني لم يشأ أن تكون علاقاته بمصريه من أهل العلم على شئ من الوفاق والتقدير المتبادل . وربما كانت حظوته عند السلاطين من أسباب الجفوة الطويلة بينه وبين القريرى وابن حجر ، وهذا فضلاً عن أنه خلف الأول في منصب الحسبة ، ولأنه خَلِيق بينه وبين الثانى جدلاً عنيفاً بشأن كتاب فتح البارى . وتوفى الميمني سنة ١٤٥١ م ، وهو في الحادية والتسعين من عمره ، وذلك بعد سنتين من عزله عن القضاء ، بأمر السلطان جقمق .

الكن السلطان جقمق أعجيب بلباقة ابن عرب شاه ، وهو الذى ولد فى دمشق سنة ١٣٩٢ م ، ثم غادرها وأسرت سنة ١٤٠١ م إلى سمرقند ، حين غزا تيمورلنك دمشق ، وأخذ كثيراً من أهلها وناسها إلى عاصمته فى بلاد ما وراء النهر . وهناك تعلم ابن عرب شاه الفارسية والتركية والمغولية ، وتمكن منها جميعاً ، حتى أصبح قادراً على إجادة النظم فى كل منها ، بالإضافة إلى إجادته النظم فى العربية أيضاً .

وعاش ابن عرب شاه أماً سفرطول حياته ، فزار بلاد المغول وتركيا والشام وبلاد الحجاز ، حيث حج إلى مكة سنة ١٤٢٨ م . وجاء ابن عرب شاه إلى القاهرة سنة ١٤٣٩ م ، فأكرم وفادته ابن حجر والسخاوى وأبو المحاسن ، وأبقى هو المدة التى قضاها بالقاهرة فى البلاط السلطاني بدعوة من السلطان جقمق . وكتب ابن عرب شاه بعد ذلك رسالة فى مدح السلطان سماها باسم التأليف الطاهر فى شيم الملك الظاهر ، القائم بنصرة الحق ، أبى سعيد جقمق . وعلى الرغم من المبالغة الشديدة فى هذا الكتاب الذى صور فيه ابن عرب شاه مولاه كأنه صورة مجسدة للفضيلة ، بل رفعه فيه إلى مرتبة الأولياء والقديسين ، فإن الكتاب إلى جانب ذلك يشتمل على تفاصيل تاريخية قيمة ، ونقد للحوادث الماضية . أضف إلى ذلك أن ابن عرب شاه كتب هذا الكتاب — على قوله — ليكون ترياقاً ضد السموم والخبائث التى أولع منها قومه فى

كتاب سابق ألفه في مساوىء تيمورلنك ، وسماه باسم عجائب
المقدور في أخبار تيمور ، — يريد بذلك أنه إذا صور في الكتاب
الأول حياة عملاق أعرج مغرى بالتخريب والهدم ، فإنه يرسم في
الكتاب الثانى صورة سلطان عادل كامل .

وزار ابن عرب شاه مدينة القاهرة عدة مرات بعد ذلك ،
غير أنه لم يلق من السلطان جعقلى شيئاً من حسن المعاملة ، على غير
انتظار ، وهو الذى أظن فى مديحه ، إذ أوحى إلى جعقلى أنه
يعمل ضد مصالح الدولة المملوكية . ثم وثى به أخيراً عند السلطان
بأنه يعمل ضد مصالح جعقلى نفسه ، فأمر بالقبض عليه وامتحن
على يده ، وأرسل إلى سجن القشرة سنة ١٤٥٠ م ، وهو فى شدة
المرض . وعلى الرغم من تبرئته من جميع ما نسب إليه من التهم ،
حتى إنه لم يمكث بالسجن سوى خمسة أيام ، لم يلبث أن قضى
مهموماً حزينا بالقاهرة فى شهر أغسطس من تلك السنة .

إلى جانب أولئك المؤرخين بقى اثنان ممن عاصروا المقرئى ،
وهما وإن لم يشتغلا بكتابة التاريخ فكل منهما خلف مؤلفا له
قيمة واضحة فى فهم أصول الحكم وطرق الإدارة بمصر والشام فى
العصور الوسطى ، وأولهما خليل بن شاهين ، وثانيهما الخالدى
الذى ألف فى ديوان الإنشاء بالقاهرة كتاباً لا يعرفه إلا الأفلون
حتى الآن .

أما خليل بن شاهين فولده سنة ١٣٧٢ م ببيت المقدس ، حيث

عاش أبوه أميراً من أمراء المماليك في تلك النياية الشامية . وجاء ابن شاهين إلى القاهرة في شبابه ، فدرس الحديث على ابن حجر ، غير أنه ترك ممارسة العلم ، والتحق بالفرقة المملوكية السماع باسم فرقة أولاد الناس ، وهي الفرقة الخاصة بأبناء الأمراء من المماليك . وسرعان ما مضى ابن شاهين قدما في طريق الوظائف ، حتى إنه جمع في يده سنة ١٤٣٤ م وظيفة النائب والحاجب والمشد بالإسكندرية ، ويرجع بعض الفضل في ذلك التعمد إلى أنه كان حاكما للسلطان برسباي . وتقلب ابن شاهين بمسد ذلك في كثير من المناصب والنيابات عصر والشام ، حتى إذا كانت سنة ١٤٤٨ م أنعم عليه السلطان جقمق برتبة أمير مائة مقدم ألف ، وهي أكبر الرتب الحربية في دولة المماليك الأولى والثانية .

أما مؤلفاته فأهمها كتابه المسمى زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، كتبه ابن شاهين في مجلدين يقمان بين دفتيهما أربعين فصلا ، تم اختصاره في مجلد واحد إلى اثني عشر فصلا ، وذلك في عصر السلطان جقمق . وهذا المختصر هو الذي بقي حتى الآن ، وفيه تناول المؤلف الدستور المملوكي ، وبين الوظائف الحربية والإدارية في دولة المماليك الثانية التي تقلب في مناصبها حتى قبيل وفاته بالقاهرة في نوفمبر سنة ١٤٦٨ م .

وأما الخالدي ، واسمه بهاء الدين محمد العمري الخالدي ، فلا يعرف عنه حتى الآن (فيما أعلم) سوى أنه مؤلف لكتاب اسمه

المقصد الرفيع المنشأ الهادى لديوان الإنشاء ، وهو كتاب مشابه فى موضوعه لكتاب مسائل الأبصار فى عمالك الأمصار ، لشهاب الدين بن فضل الله المعري المتوفى أواسط القرن الرابع عشر الميلادى ، ولكتاب التعريف بالمصطلح الشريف للمؤلف نفسه ، ولكتاب صبح الأعشى للقلقشندي المتوفى أوائل القرن الخامس عشر الميلادى . ومن الجلى لى لى من يطالع على هذا الكتاب المخطوط أن مؤلفه نقل كالمعري والقلقشندي فى وظائف ديوان الإنشاء بالقاهرة مدة طويلة ، بدليل معرفته أسماء الدول والأقطار التى انقطعت رسائلها عن مصر فى عصره ، وبدليل إلمامه التام بأساليب الكتابة والدبلوماسية (diplomacies) إلى مختلف الملوك فى الشرق والغرب .

ومما وصح لى لى هذه السطور أثناء قراءته لهذا المخطوط أن مؤلفه كتبه فى منتصف عهد السلطان رسماى تقريباً ، أو بعد سنة ١٤٣٢ م على التحقيق ، فهو حلقة ظلت حتى الآن مفقودة عند المشتغلين بتاريخ النظم المصرية فى العصور الوسطى ، وبه معلومات انفرد بها عن سبقه من المؤلفين فى هذه الناحية من التاريخ المصرى .

الفصل الثاني

أبو المحاسن ومعاصره

احتل أبو المحاسن^(١) مركز الصدارة بين المؤرخين عصر
بعد وفاة المقرئى والعيني ، أواسط القرن الخامس عشر الميلادى .
واسمه أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تفرى بردى بن عبد الله
الظاهرى الجوبى ، ومولده بالقاهرة فى يناير سنة ١٤١١ م ،
بدار الأمير منجك اليوسفى ، قرب مدرسة السلطان حسن ، بحى
القلمة الحالى . وكانت أمه جارية تركية من جوارى السلطان
برقوق ؟ وأصل أبيه تفرى بردى مملوك روى (يونانى) جميل
الطلمة ، اشتراه هذا السلطان ورباه وجعله ضمن ممالئكه ،
ولم يلبث أن أعتقه ورفاه يوم عتقه إلى فرقة الخاصكية ، وهى
إحدى فرق الممالئك السلطانية . ثم أصبح تفرى بردى موضع رعاية
مولاه ، فتقلد كثيراً من الوظائف الرفيعة فى الدولة المملوكية ،
واشترك فى حوادث ذلك العهد حتى وفاة السلطان برقوق سنة

(١) انظر (Wiet : L'Histoire Abu-l-Mahasin) فى Bulletin
de l'Institut d'Egypte, XII., 2 me fasc., 1930) وراجع كذلك
(Popper: Abu-l-mahasin) فى طبعة جامعة كاليفورنيا بالولايات المتحدة
الأمريكية لكتاب النجوم الزاهرة (Vol. VII. pp. XII—XV) .

١٣٩٨ م . وقام تغرى بردى أيام السلطان فرج بن برقوق بدور خطير في حياة الدولة المملوكية الثانية ، ونهض بمسؤوليات كبيرة ، إذ تولى نيابة دمشق ، وهي أكبر النيابات في الدولة ، وأسهم في مدافعة نيمورلنك عن مدن الشام ، وأنهزم منه مع السلطان إلى الديار المصرية . ثم تولى تغرى بردى نيابة دمشق للمرة الثانية بعد جلاء النكر عن الشام ، وأنهم أثناء ولايته عليها بهمة الحياة المعظمي ، فشق عصا الطاعة وهرب إلى بلاد التركان ، حيث أقام مدة منفياً . ثم عفا عنه السلطان فرج بعد ذلك ، وطلب إليه العودة إلى القاهرة ، وولاه أتابكية المسافر بالديار المصرية ؛ بل تزوج السلطان من كبرى بناته ، واسمها فاطمة ، وولاه نيابة دمشق للمرة الثالثة ؛ وما زال تغرى بردى على نيابتها حتى وفاته أوائل سنة ١٤١٢ م (١) . وفي تلك السنة نفسها مات السلطان فرج قتيلاً بسيف الشرع ، على يد الخليفة العباسي والقضاء الأربع والأميرين نوروز وشيخ ؛ واعتلى عرش السلطنة المملوكية الثانية بعده ثاني هذين الأميرين ، وهو المعروف باسم السلطان المؤيد شيخ . وترك تغرى بردى ستة أبناء وأربع بنات ، منهن خوند فاطمة زوج السلطان المتوفى . وكان أبو المحاسن أصغر أولئك

(١) ترجم أبو المحاسن لأبيه تغرى بردى ترجمة وافية في كتابه التيجون الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (طبعة كالمفورنيا) ، ج ٦ ، ص ٤٣٢ — ٤٣٥ .

الأولاد والبنات جميعاً إذ توفي والده وهو في الثانية من عمره ،
فقال تربيته قاضي القضاة ناصر الدين بن العديم الجني ، وهو
زوج أخته الثانية واسمها يريم . ثم توفي ابن العديم ، وتزوجت يريم
من قاضي القضاة جلال الدين البلقيني الشافعي ، فأكمل البلقيني
تربية العبي إلى أن كبر وانتشى وترعرع . ثم توفي البلقيني سنة
١٤٢١ م ، فصار أبو المحاسن تحت كف جملة من أكابر مماليك
أبيه ، فمهدوه بما حاجة من رعاية وعيش وتعليم مدني وحربي .

وحكى أبو المحاسن عن نفسه أنه أدخل يوماً وهو في الخامسة
من عمره إلى حضرة السلطان شيخ ، بعد أن علمه بعض
من أمه أن يطلب إلى السلطان أن يعطيه " خبزاً " ، ومعه
في مصطلح الدولة المملوكية إقطاع من الأرض ؛ وهذه عبارة
أبي المحاسن : " فلما جلست عنده وكلني سألته في ذلك ، فغمر
من كان واقفاً بين يديه وأنا لا أدري ، فأناه برغيف كبير من الخبز
السلطاني ، فأخذه بيده وناولني ، وقال : " خذ ، هذا خبز كبير
مليح ، فأخذته من يده وألقيته إلى الأرض ، وقلت : أعط هذا
للفقراء ، أنا ما أريد إلا خبزاً بفلاحين ، يأتون بالنم والأوز
والدجاج ، فضحك حتى كاد أن يغشي عليه ، وأعجبته مني ذلك إلى
الغاية ، وأمر لي بثلاثمائة دينار ، ووعدني بما طلبته وزيادة (١) .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (مطبعة
كاليفورنيا) ، ج ٦ ، ص ٤٣٠ .

والواقع أن أبا المحاسن نشأ في بسطة من العيش ، وليس من الحق قوله في موضع آخر من كتابه هذا إنه عاش فقيراً من غير مال ولا عقار بعد وفاة أبيه ، لاستيلاء السلطان فرج فملاً على جميع ما خلفه تقرى بردى من ثروة ومقتاع — وإقطاع طبعاً . ذلك أن أوصيائه كفلوا نفقته وتشيئته وتعليمه على أحسن وجه ، كما تشهد بذلك قائمة المشايخ الذين درس عليهم مختلف علوم عصره ، بحصر والشام والحجاز ، ومنهم القرزى والعيني وابن حجر وابن عربشاه بالقاهرة ، وابن ظهيرة وابن العلييف بمكة ، والمرعشي وابن الشماع بحلب ، وكثير غيرهم من أصلاء القرن الخامس عشر الميلادي بالشرق الأدنى من علماء المسلمين . على أنه أحب التاريخ من دوت العلوم التي درسها وأجيز له فيها ، فلازم القرزى — والعيني أيضاً — من أجل ذلك ، ونهج نهجهما ، واتبع أسلوبهما ونظهما في التحصيل والكتابة الغزيرة ، واجتهد في ذلك إلى الغاية ، وساعدته جودة ذهنه وحسن تصوره ، وهذا فضلاً عن معرفته باللغة التركية (١) .

غير أن تفضيل أبي المحاسن لدراسة التاريخ خاصة يرجع في الغالب إلى ما استقام للعيني بواسطته من المكانة السامية التي شغلها في بلاط السلطان برسباي ، إذ طمح هو أيضاً في مثل ذلك لنفسه ،

(١) انظر تفصيل عنا كله في مقدمة كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (طبعة القاهرة) ، ج ١ ، ص ٣ — ٢٨ .

بالوسيلة عينها لدى سلطان مقبل . فلما مات القرزى سنة ١٤٤٢ م ، والعيني بمده سنة ١٤٥١ م ، خلا الجو لأبى المحاسن ، ولم يوجد من ينازعه فى زعامة المؤرخين فى عصره . وأشار أبو المحاسن نفسه إلى ذلك فى غبطة ورضى ، وجسارة مشوية بغرور ، إذ كتب بصدد وفاة العيني : ” ولما انتهينا من الصلاة على قاضى القضاة [العيني] ، قال لى بدر الدين محمد بن عبد المنعم الحنبلى : خلا لك البرّ بيّض واسفر^(١) . فلم أرد عليه ، وأرسلت إليه بمد عودتى إلى منزلى ورقة بخط العيني هذا ، يسألنى فيها عن شئ ، سئل عنه فى التاريخ من بعض الأعيان ، ويعتذر عن الإجابة بكبر سنه وتشتت ذهنه ، ثم أبسط فى الشكر والمدح والثناء إلى أن قال : وقد صار المول عليك الآن فى هذا الشأن ، وأنت فارس ميدانه وأستاذ زمانه ، فاشكر الله على ذلك ؟ وكان تاريخ كتابة الورقة المذكورة فى سنة تسع وأربعين^(٢) وثمانمائة “ ، أى قبل وفاة العيني بسنتين . ومهما يكن من انتهاء الزعامة بين المؤرخين فى مصر لأبى المحاسن ، فإنه لم يتفق له أن صار نديماً دائماً لسلطان من سلاطين المماليك ، بقراً له التاريخ فى أمسياته ، مثلما كان العيني مع السلطان

(١) كذا بالأصل (انظر الحاشية التالية) ، والجملة دعابة افطية مستمدة من عبارة ” يضى واصفرى “ المشهورة .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا ، ج ٧ ، ص ٣٦٦) وانظر كذلك أول صفحة من كتاب حواذى الدهور — طبعة كاليفورنيا — حاشية هـ . تلك الصفحة .

برسبای . على أنه تقلد كثيراً من الوظائف في عهود مختلفة ، وكان له من مولده ونشئته ، وقراباته ومصاهراته وصدقاته ، ما جعله من رواد البلاط السلطاني . ولذا كان أبو المحاسن من المختلفين إلى حضرة السلطان برسبای ، حتى صحبه في حلقات الصيد والزهة والسرحة ؛ وحسنت صلاته بالسلطان جقمق ، حتى انتظمت زيارته مجلسه مرة كل أسبوع ، ضمن رجال العلم والأدب ؛ وكان بينه وبين الأمير محمد بن جقمق صحبة قديمة ومحبة زائدة ومصاهرة . بيد أنه لم يكن ذا حظوة لدى السلطان إينال ، حتى إن زيارته لبلاطه لم تمتد المرة أو المرتين في العام كله . ثم لم يلبث أن عاوده الحظ عند السلطان خشة دم الرومي ، بفضل وساطة أحد الأمراء الكبار . وعاش أبو المحاسن يرى أوائل سلطنة قايتباي ، وليكتب في حوادثها بما يدل على أنه لم يلق في بلاط ذلك السلطان عناية أو قبولاً .

على أن أبا المحاسن استطاع خلال حياته الطويلة — التي صرف معظمها وهو يحوم حول البلاط السلطاني — أن يكتب كثيراً في التاريخ والتراجم ، وأن يبرع في فنون الفروسية ، من لعب الرمح ورمي النشاب ، وسوق البرجاس ولعب الكرة بالعصا (Polo) ، وأن يحقق علم النجم والضروب والإبقياع ، وأن ينظم الشعر في العربية والتركية ، وأن يحج إلى مكة مرتين . سنه ١٤٢٢ و ١٤٤٥ م . وقام أبو المحاسن في حجته الثانية

بوظيفة باش المحمل المصرى ، وهى أقل رتبة من وظيفة أمير المحمل ؛ وجرت العادة أن يكون لهذا الأمير رجلان فى معيته يسمى أحدهما باش الميمنة ، وثانيهما باش اليسرة ، وكان قايتباى الذى تسلطن فيما بعد على اليسرة^(١) فحسب .

أما مؤلفات أبى المحاسن فعددتها اثنا عشر كتاباً على قول ابن الصيرفى وغيره ممن كتبوا ترجمته ، وبقي بين أيدينا من هذه المؤلفات سبعة فقط ، أشهرها كتاب "عظيم فى تاريخ مصر من الفتح الإسلامى إلى سنة ١٤٦٧ م ، واسمه النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، فى سبع مجلدات ضخمة^(٢) . وعكف أبو المحاسن على تأليف هذا التاريخ الكبير من أجل السلطان المرحوم محمد بن جقمق ، الذى عاجلته المنية سنة ١٤٤٣ م قبل أن يتحقق ذلك الرجاء ؛ وكان فى عزم أبى المحاسن أن يختتمه بحكم هذا الأمير وعدله ، وأن يجعل منه ما جعل العيني من عقد الجمان^(٣) . وكثيراً ما يشير أبو المحاسن فى ثنايا هذا الكتاب إلى كتاب آخر سبق له أن ألفه ، واسمه المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، وهو كتاب حافل

(١) السخاوى : التبر المنبوك فى ذيل السلوك ، ص ١٢٣ .

(٢) ذكر أحد المعاصرين أن أبا المحاسن اختصر هذا المؤلف فى مجلد اسمه الأنوار الطاهرة من الكواكب الطاهرة ، غير أنى لم أستطع العثور على هذا الكتاب فى المكتبات التى زرتها حتى الآن .

(٣) أبو المحاسن . النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) ، ج ٧ ،

بتراجم الأعيان والناهبين من سلاطين الدولتين المملوكية الأولى والثانية ورجالهما ، وبعض ملوك البلاد القريبة من المسلمين والنصارى ، من سنة ١٢٥٢ م إلى عصره ؛ ورتبه أبو المحاسن ترتيباً أبجدياً ، وأراد به أن يكون ذيلاً وتكملة لكتاب الوافي بالوفيات ، لتحليل بن أبيك الصفدى المتوفى سنة ١٣٦٢ م . ثم اختصر أبو المحاسن هذا المؤلف في كتاب سماه الدليل الشافى على المنهل الصافى ، وجعل لهذا المختصر مختصراً سماً مودد اللطافة في ذكر من ولي السلطنة والخلافة ، فجاء هذا الكتاب الأخير كالميكمل العظمى ، لا يوجد به سوى تاريخ مقتضب للسيرة النبوية ، يتلوه بيانات جافة بأسماء الصحابة والخلفاء الراشدين ، والأمويين والعباسيين والفاطميين ، ومنهم على مصر إلى سنة ١٤٣٨ م . ولأبي المحاسن مؤلف آخر يكثر من الإشارة إليه كذلك في كتاب النجوم الزاهرة ، واسمه حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ، وهو ذيل لكتاب السلوك لمعرفة دول الملوك لأستاذ المقرئى ، ورتبه على السنين والشهور والأيام كترتيب السلوك ، أى أن أبا المحاسن بدأ به من حيث انتهى ذاك إلى سنة ١٤٥١ م . لكنه خالف المقرئى وغيّره قليلاً في طريقته من الإطناب في الحوادث والاقتصار في تراجم الوفيات ، فأطال في كل منهما ما استطاع إلا ما سبق له استيفاءه في كتابيه الأولين ، " لتكثر المائدة من الطرفين " ، على قوله في مقدمته لذلك الكتاب الأخير .

ومن مؤلفات أبي المحاسن كذلك كتاب اسمه نزهة الراى
فى التاريخ ، وكتاب البحر الزاخر فى علم الأوائل والأواخر ؛
وهذان عدا كتب أخرى^(١) لاصلة لها بصميم التاريخ ، وهى
كتاب نزهة الألباب فى اختلاف الأسماء والألقاب ، وكتاب
حماية الصفات فى الأسماء والصناعات ، وكتاب البشارة فى تسكيلة
الإشارة ، وكتاب الانتصار لسان التتار ، وهو رسالة فى معانى
اللغة التركية ، وكتاب فى الرياضيات والموسيقى ، وكتاب
السكر الفاضح^(٢) والمطر الفائح فى التصوف .

وتقد ابن الصيرفى والسخاوى مؤلفات أبى المحاسن فى عنف
وشدة ، ورماء كل منهما بما خال أو شاء من تهم يستشف القارى
فى عبارتهما شيئاً من الغيرة والحسد . ومن ذلك قول السخاوى ،
ونصه : ” وبالجملة فقد كان [أبو المحاسن] حسن العشرة ، تام
العقل — إلا فى دعواه فهو حق — . . . لطيف المذاكرة ،
حافظاً لأشياء من النظم ونحوه ، بارعاً حسناً كنت أتوهمه
فى أحوال الترك ومناصبهم وغالب أحوالهم ، منفرداً بذلك ،

(١) جميع الكتب المقدمة موجودة ، كلمة أو ناقصة ، مطبوعة
أو مخطوطة ، فى مختلف مكتبات العالم ، وما عدا ما فتر مقطوع بوجوده
حتى الآن .

(٢) توجد نسخة خطية من هذا الكتاب فى مكتبة الإسكوريال .

لا عهد له بمن عداهم ، ولذلك تنكّر فيه أوهامه ، وتحتاط ألفاظه وأقلامه ، مع سلوك أغراضه ، ونحاشيه بجاهرة من أدبر عنه بإعراضه ، وما عسى أن يصل إليه ^(١) تركي . ورد ابن الصيرفي هذا المعنى ، وزاد عليه أن أبا المحاسن كان " كلما فرغ من تصنيف يتوجّه به إلى من يعرف العربية ، فيصلحه له وبصير له به مزية " .

ومع هذا وغيره من أقوال المعاصرين يتجسّى من كتب أبي المحاسن أنه كان مؤلفاً واسع المعرفة ، شديد التدقيق والتحري في كتابته ، وأنه كان مجتهداً كدوداً ، أميناً بقدر ما انطوت عليه هذه الصفة من معنى عند جبهة المؤرخين في المصور الوسطى بالشرق والغرب ، حين لم يكن النقل وانتحال الصفحات المتتابعة من كتب السابقين والمعاصرين جريمة شنيعة . يضاف إلى ذلك أنه إذا أخذنا نقد أبي المحاسن لأخلاق الرجال الذين تناولهم في كتبه مقياساً خلقه ، وذكرنا قول ابن إلياس فيه ، وهو الذي خلقه في زعامة المؤرخين عصره ، وضح لنا حقاً أنه كان " رئيساً حشماً فضلاً ... له اشتغال بالعلم ... مشغولاً بكتابة التاريخ ^(٢) " ،

(١) السخاوي : الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع ، ج ١٠ ، ص ٣٠٥ — ٣٠٨ .

(٢) ابن إلياس : بدائع الزهور (طبعة القاهرة) ، ج ٢ ، ص ١١٨ .

بدليل أنه لم ينقطع عن الكتابة والتأليف حتى قبيل وفاته في
يونيه سنة ١٤٧٠ م .

وعاصر أبا المحاسن اثنان ممن اشتغلوا مثله بالتاريخ المصري ،
وألفوا فيه مؤلفات قيمة ، وهما بحسب الترتيب الزمني ابن الصيرفي
والسخاوي ، وكل منهما صاحب ترجمة طويلة لأبي المحاسن تم
عن كثير مما قام بين مؤرخي ذلك القرن كله من تنافس وغيره ،
وحسد أحياناً وسوء دخيلة .

وكان ابن الصيرفي أكبر الرجلين عُمرًا ، وإن بدا أقلهما شهرة
وتراناً في التأليف ، واسمه نور الدين علي بن دارد الصيرفي الخطيب
الجوهري الإسرائيلي الحنفى . وعرف بين معاصريه باسم ابن
الصيرفي — وابن داود كذلك . وكان مولده بالقاهرة سنة
١٤١٦ م ، أى اثنى عشرة سنة قبل ميلاد السخاوي ، وأبوه
داود صيرفي بدواوين الدولة المملوكية في عهد سلطان لم تعينه
المراجع التى بأيدينا حتى الآن ، وتوفى داود هذا سنة ١٤٤٩ م .

نشأ ابن الصيرفي في كنف والده ، وتعلم تعلمًا يسيرًا ، كما يفهم
من ترجمة السخاوي^(١) له ، مع أنه تعلم لابن حجر العسقلانى ،

(١) انفرد السخاوي (الضوء اللامع ، ج ٥ ، ص ٢١٧ — ٢١٩)
بترجمة وافية لابن الصيرفي ، وليس في غيره من المراجع التى أعلمها ، مثل ابن
مياس (بدائع الزهور ، طبعة القاهرة ، ج ٤ ، ص ٢٨٨) ومؤلفات
ابن الصيرفي التى لم يصل إلينا منها سوى النزر القليل ، ما يضيف كثيرًا إلى
ما كتبه السخاوي .

ولازم مجلسه في الإملاء وغيره ، وتحرّص الركوب في خدمته ،
حتى استغفله لذلك جماعة من تلاميذه . ويظهر أن السخاوى —
وهو كذلك تلميذ لاحق لابن حجر — كان ممن ضاق بتلك
الملافة بين ابن الصيرفى وشيخه ، كما عظم عليه توليته خطابة
جامع السلطان برقوق ، وذهب ابن حجر للصلاة خلفه هناك ،
ولذا جاءت ترجمته لابن الصيرفى مملوءة غمطاً وسخرية .

مارس ابن الصيرفى التجارة بعد وفاة أبيه ، مع بقائه على
الاشتغال بالعلم ، وقيامه على وظيفة الخطابة بجامع السلطان برقوق
وغيرها من الوظائف الصغرى ؛ فتكسب بسوق الجوهرين —
ومن هنا جاء تلقيبه بالجوهري — ، وابتنى بعض الدور بحكر الشاى
بالقاهرة وأسكنها بالأجرة . ثم آل أمره يوماً إلى أن فقد غالب
ما عنده واحتاج ، فولاه قاضى القضاة محب الدين بن الشحنة
الحنفى نائباً للحكم (قاضياً) ، واشتغل بنسخ الكتب وارتفق
بذلك ، ففسخ كثيراً من كتب شيخه ابن حجر وأبى المحاسن
والسخاوى في التاريخ وغيره . ومن ثم كان اشتغاله بالتأليف
في التاريخ بعد أن تقدّمت به السن ، وفسدت علاقته بالسخاوى
وأبى المحاسن من حين ذاك ، فشئى السخاوى بسيرته عند الناس ،
وامتنع أبو المحاسن من إعارته كتباً من مكتبته ، بل أخفى عنه
تصانيفه مخافة أن ينقل منها . على أن ذلك لم يقل من عزم ابن
الصيرفى ، أو بصرفه عن الكتابة ، فألف كتاب نزهة النفوس

والأبدان في تواريخ الزمان ، وافتتحه بسلطنة برقوق سنة ١٣٨٢ م ، واختتمه عند ١٤٤٦ م ، وهي السنة الثامنة من عهد السلطان جقمق ؟ ثم كتاب أنباء الحصر في أبناء العصر ، ولم يصل إلينا منه سوى الجزء التاسع فقط ؛ ثم كتاب سيرة الأشرف قايتباي ، وهو غير مقطوع بوجوده ، وأمله المخطوط السكّان بالمتحف البريطاني بلندن لغير مؤلف معروف . ولابن الصيرفي كذلك كتاب في السيرة النبوية سماه الجوهريّة ، ورآه أبو المحاسن وأنهاء مطالعة وقرّظه وهو راغم بخطه ، إلى جانب خطوط الكثير من القرّطين ، على قول ابن الصيرفي نفسه .

غير أن السخاوي لم يشأ إلا أن يحطّ من قدر ابن الصيرفي ومؤلفاته ، وربما قصد بذلك أن ينتقم لنفسه منه ، لمزاحمته إياه في صحبة ابن حجر وملازمته ، فقال : " إنه نصب نفسه لكتابة التاريخ ، فكان تاريخاً ، لسكونه لا تمييز له عن كثير من العوام إلا بالهيئة ، مع سلوكه لما يستنبح ، بحيث ... صار الفقهاء والقضاة به مثله .. ؛ وبالجملة فهو من سيئات الزمان ، غنى بشهرة سيرته عن مزيد البيان ، وجهله واضح الظهور " (١) .

ولابن إياس في ترجمته القصيرة لابن الصيرفي نقدٌ مشابه ، على الرغم مما فيه من اعتدال في اللفظ ، ونصه أن ابن الصيرفي

(١) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٥ ، ص ٤١٨ — ٢١٩ .

” كان يكتب التاريخ مجازفة ، لا عن قائل ولا عن راوي ، وله في تاريخه خطبات كثيرة ، وجمع من ذلك عدة كتب من تأليفه . . وكان لا يخلو من فضيلة (١) “ .

على أن ابن الصيرفي لا يستحق هذه العبارات المريرة من معاصريه ، يشهد بذلك السخاوي نفسه في نفايا ترجمته له حين يعجب من كثرة مقرظيه ومهيديه من أعلام عصره ، ويشهد به كذلك كاتب هذه السطور بعد أن قرأ ما استطاع قراءته من المؤلفات المذكورة ، إذ وجد بها كثيراً من تفاصيل الحقائق التي توجد مقتضبة مختصرة في كتب الآخرين ، كأبي المحاسن والسخاوي وابن إياس . وكانت وفاة ابن الصيرفي في يونيه سنة ١٤٩٤ م .

أما السخاوي واسمه أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد ... السخاوي ، نسبة إلى بلدة سخا الحالية بمركز كفر الشيخ بديرية الغربية ، فولده سنة ١٤٢٧ م ، بحارة بهاء الدين لصق باب الفتوح القديم بالقاهرة . وعاش جده محمد شيخاً فقيراً صالحاً يتكسب بتجارة يسيرة في سوق الغزل بميدان القمح بالقاهرة ، ويكثر من الاختلاف إلى مواعيد رجال الدين ومجالسهم للإفادة والاعتبار . وكان أبوه عبد الرحمن كذلك في مهشته وتكسبه وغشيانه مجالس رجال الدين ، وطابت صلته ببعضهم لبعضهم بتقواه

(١) ابن إياس : بدائع الزهور — طبعة القاهرة ، ج ٢ ، ص ٢٨٨ .

وتصرفه^(١). ولذا كان معظم شيوخ السخاوى ومعلميه من رجال الدين أصحاب أبيه، ومنهم ابن حجر الذى اختص به وأحبه، لسبق الصلة بين والده وابن حجر، وقرب منزله من منزله. ولزم السخاوى ابن حجر أشد الملائمة، وحمل عنه ما لم يشاركه فيه غيره، وأخذ عنه أكثر تصانيفه فى الحديث والتاريخ والفرائض، وهذا فضلا عن مقروءاته ومسموعاته على غير ابن حجر من المشايخ. وحالا للسخاوى أن يمدّ هذه المقروءات والمسموعات وأحبابها، عدداً دقيقاً فى ترجمته لنفسه فى كتابه الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، وهى ترجمة ضائية فى ثلاثين صفحة كاملة، وليس فى كتابه كلمة ترجمة تشبهها أو تقرب منها فى السمة والإضافة "والتدح" بأقوال المعجبين به من المعاصرين^(٢).

وعرف السخاوى عند بعض "أناس مخصوصين" باسم ابن البارد، وهى تسمية اشتهر بها جده وأبوه كذلك، لسبب غير واضح تماماً، لعله فيما يخص السخاوى على الأقل أنه كان عظيماً عند نفسه إلى درجة لم يشاركه فيها الكثيرون من المعاصرين، وأنه تناول معظم أعلام عصره بالتجريح والنقد، وربما فى غير واحد

(١) ترجم السخاوى (الضوء اللامع، ج ٤، ص ١٣٤ — ١٣٥، ج ٧، ص ١٢٥ — ١٢٧) لكل من جده وأبيه ترجمة تفيض حناناً وبراً، وهى العمدة الوحيدة لكاتب هذه السطور فيما كتب هنا بصدد ذلك.

(٢) السخاوى: الضوء اللامع، ج ٨، ص ٢ — ٣٢.

من مؤلفاته بالقصور وضمف الرواية والبيان . ومع هذا
فالسخاوى نشأ وعاش ممتصاً برعاية أستاذه ابن حجر وعنايته ،
وبادل الشيخ تلميذه حباً بحب وإخلاصاً بإخلاص ، فصار يرسل
إليه خادمه ليعلمه بوقت ظهوره في بيته ليقرأ عليه ، بل قال فيه ،
ولما يبلغ الثانية والعشرين من عمره : " لأنه مع صغر سنه ، وقرب
أخذه ، فاق من تقدم عليه بحده واجتهاده ، وبحريه وانتقاده (١) " .
وأكثر من هذا أن ابن حجر قام ليخدم بنفسه في حفل عرس
السخاوى سنة ١٤٤٤ م ، وجهد في توظيفه بوظائف تدريس
الحديث التي أهله لها أحسن تأهيل .

ثم توفي ابن حجر سنة ١٤٤٩ م ، فعزم السخاوى على الرحيل
عن مصر إلى الشام ، ليسأل عن فقد أستاذه بالدرس والتحصيل
هناك . غير أن أبويه ثنياه عن عزمه هذا ، فظل بمصر مواصلة
دراسة الحديث ، وطاقق ينتقل في سبيل ذلك بين الدن الكبرى
كدمياط ومنوف والحلة الكبرى وسمنود والإسكندرية وغيرها .
واجتهد السخاوى أثناء ذلك أن يجد لنفسه وظيفة لتدريس الحديث
بالقاهرة ، مستعيناً بأصدقاء أستاذه الراحل . ثم انتهى به الأمر إلى
الحج مع أمه وأبيه سنة ١٤٥٢ هـ . فأقام بمكة بضع سنين وجاور
بها ، وزار المدينة . وتقل السخاوى ١٤٥٣ م بعد ذلك بين مصر

(١) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ٨ ، ص ٣٠ .

والشام والحجاز ، فحج خمس مرات آخرها سنة ١٤٩٢ م ،
وحرص على الإقامة بمكة مدة لإر كل حجة ، كما استقر به أحياناً
لتدريس الحديث بمدارس القاهرة ، ودأب أثناء ذلك كله على
التأليف في الحديث والتاريخ .

واتصل السخاوى بالأمير يشبك بن مهدي كاشف الوجه القبلى
على عهد السلطان خشقدم ، ويشبك هذا هو صاحب الدواديرية
الكبرى زمن السلطان قايتباى . وكان يشبك أعظم شخصية
فى الدولة المملوكية مدة حكم قايتباى ، ويده فوق وظيفته
الكبرى خمس وظائف أخرى ، مع ما يتعلق بها من أوقاف
وأمالك ومدارس ومحسوبة ، ومن ذلك تعيينه السخاوى على
إحدى وظائف تدريس الحديث التى تهب قبلاً فى الحصول على
مثلها أيضاً تهب ، وسميه له قبل ذلك عند خشقدم ليكون مقرئاً
للحديث بعد إمام السلطان . ومع هذا شاء السخاوى أن يذكر
صلته بذلك الأمير الكبير فى عبارة كلها كبرياء ورفع ، وأن يقرر
أن يشبك سأل فى البيت عند السلطان خشقدم ليلتين فى
الأسبوع ، ليقرأ له نخباً من التاريخ ، كما فعل الميمنى مع السلطان
برسباى ، فننصل وأبى ، وأن يشبك التمس منه أن يحضر إليه
ليقرأ له تصانيفه ، فامتنع كذلك^(١) . وهذا نهى عبارة السخاوى فى

(١) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ٨ ، ص ٣١ .

ترجمته لهذا الأمير البذول الحسن : " وقد نكرر اجتماعي به ،
وكان حريصاً على ذلك ، بحيث رغب في تحصيل أشياء من تصانيفي ،
واسمع بعض أولاده مني بحضرته [كتاب] [السلسل] [في الحديث] ،
ولو وافقته على مزيد الاجتماع به لأريد إقباله ، ولكن الخيرة
فيما قدر (١) " .

وعنى السخاوى بذكر مؤلفاته الكبرى والصغرى في أربع
صفحات من ترجمته لنفسه (٢) ، ومنها في التاريخ كتاب التبر
المسبوك في ذيل السلوك ، في أربعة أجزاء (٣) ، وهو كما يتضح
من آخر العنوان تكملة لتاريخ المقرئ المشهور ، وكان تأليفه
إياه إجابة لرغبة الأمير يشبك وهو على وظيفة الدواديرية الكبرى ،
أى أن السخاوى كتبه زمن السلطان قايقباى . ويظهر
أن السخاوى شغف بتكميل كتب السابقين أو تلخيصها ،

(١) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ١٠ ، ص ٢٧٢ — ٢٧٤ .

(٢) انظر السخاوى (الضوء اللامع ، ج ٨ ، ص ١٥ — ١٩)
حيث توجد قائمة طويلة بأسماء كتبه ورسائله ومقالاته ، وهي جديرة
ببحث الباحثين واستقصاء الراغبين في إحياء الكتب العربية المبعثرة
بمختلف مكتبات العالم .

(٣) طبع هذا الكتاب بالقاهرة من نسخة فريدة ناقصة تهتدى
من سنة ٨٤٥ هـ وتنتهى سنة ٨٥٧ هـ ، مع أنه كان يشمل حتى أواخر
القرن التاسع الهجرى ، على قول السخاوى نفسه ، وهذا فضلاً عن إشارات
المعاصرين بصدده .

إذ ألف كتاب وجيز الكلام في ذيل تاريخ دول الإسلام تكملة
لكتاب الذهبي المؤرخ ، وكشَب الذيل المتناهي تكملة لتأليف
ابن حجر في قضاة مصر ، كما ألف الذيل على طبقات القراء تكملة
لكتاب الجزري . أما ملخصاته فمنها كتاب المتفق من تاريخ
مكة للفاسي ، وكتاب تلخيص تاريخ اليمن لمؤلف لم يذكره ، ولعله
الفاسي كذلك .

وللسخاوي في التاريخ كذلك كتاب الإعلان بالتوبيخ
لمن ذم التاريخ ، وهو مقالة طويلة في قواعد الجرح والتعديل
(historiography) عند المؤرخين ، وبه صفحات ضافية في تاريخ
التاريخ وفضله بين العلوم اللازمة للمستغنين بالحكم ومصادرها .
وله في التراجم كتاب الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، والجواهر
والدرر في ترجمة ابن حجر ، والقول المنبى في ترجمة ابن عربي ،
 وغير ذلك كثير في مختلف العلوم والفروع ، ولا سيما الحديث .

على أنه لا بد هنا من التعريف بكتاب الضوء اللامع لأهل القرن
التاسع ، إذ هو مجمع زاهر في اثني عشر جزءاً مطبوعة ، للنساء
المسلمات منها جزء بتمامه . وهذا الكتاب نثر مؤلفات السخاوي
ولا ريب ، رغم ما ابتلى به مؤلفه من تصغير الكبير وتحقير
الصغير ممن ترجم لهم ، حتى أبسل نفسه للوم الماصرين وتبريح
اللاحقين ، ومن ذلك قول ابن إياس فيه بأنه " ألف تاريخاً فيه

كثير من المساوى^(١) في حق الناس^(٢) ، وقول قريشه السيوطي
مستفهماً مستنكراً : " ما ترون في رجل أألف تاريخاً جمع فيه
أكابر وأعياناً ، ونصب لأكل لحومهم خواناً ، ملاءة يذكر
المساوى^(٣) وتلب الأعراض ، وفوق فيه سهاماً على قدر أغراضه
والأعراض هي الأعراض ، جمل لحم المسلمين جملة طعامه
وإدامه ، واستغرق في أكلها أوقات فطره وصيامه ، ولم يفرق
بين جليل وحقير . . . (٢) " . واشتدت الخصومة بين السيوطي
والسخاوي مدة ، واضطرم الجدل بينهما حيناً ، فرشق كل منهما
صاحبه بأنواع التهم ، حتى حال بينهما الموت ، إذ توفي السخاوي
بالمدينة سنة ١٤٩٧ م ، وبقي السيوطي بعده تسع سنين .

(١) ابن أبي عمير : بدائع الزهور — طبعة القاهرة — ج ٢ ، ص ٣٢٢ .

(٢) السيوطي : السكاوي على السخاوي . (مخطوطة بدار الكتب
الملكية المصرية ، رقم ١٥١٠ أدب) .

الفصل الثالث

ابن إياس ومعاصروه

ابن إياس ثالث المؤرخين الذين تداولوا الزعامة في حلبنة التأليف في التاريخ المصرى فى القرن الخامس عشر الميلادى ، واسمه محمد بن أحمد بن إياس المصرى الحنفى^(١) ، ومولده بالقاهرة سنة ١٤٤٨ م ، إحدى وعشرين سنة قبل وفاة أبى المحاسن . وابن إياس شبيه بأبى المحاسن من حيث أن كلا منهما سليل أسرة مملوكية ، على أن ابن إياس كان أقدم عمراً فى المجتمع المملوكى ، فبينما لا ندرى من أصل أبى المحاسن سوى أخبار أبيه وأمه منذ يحثهما إلى مصر فى عهد استأذهما السلطان برقوق ، إذا بنا نعرف الجد الأكبر لابن إياس ، واسمه إزدصر العمرى الفاصرى أبو ذقن ، الشهير بالخازندار . وكان إزدصر من أمراء الدولة

(١) أورد بروكلمان Brockelmann : Gesch. der Arab. Litt.

II. p. 276) اسم ابن إياس كاملاً كالآتى : " أبو البركات محمد بن أحمد بن

إياس زين الدين (أو شهاب الدين) الناصرى الجركسى الحنبلى " ، وكرر

نسبته إلى الحنبلية فى ملحقه للكتاب المتقدم . (Ibid : Supp. II. P. 205) ،

وهو خطأ يبينه أن حنبلياً لم يكن بين المعروفين من مشايخ ابن إياس .

المملوكية الأولى زمن السلطانين حسن وشعبان ، وتولى مدة حكم كل منهما وظيفة أمير سلاح ، ونال في عهد ثانيهما حظوة وثقة خاصة ، فتقلب في نيابات صدد وطرابلس وحلب ، واختير أواخر أيامه لنيابة دمشق ، ثم عاجله الموت وهو في الطريق إليها سنة ١٤٦٦ م . ولد لنا أيضاً معلومات قليلة بصدد جد ابن إياس لأبيه ، واسمه إياس الفخري ، وهو من مماليك السلطان الظاهر برقوق ، وقد تأسر سريماً ، وتولى وظيفة الدوا دار الثاني زمن السلطان فرج ابن برقوق .

أما والد ابن إياس ، واسمه شهاب الدين أحمد ، فكان على قول ابنه من مشاهير أولاد الناس ، أى أنه من أفراد تلك الفرقة المملوكية التي ضمت أبناء الأمراء من المماليك المندرجين بالوفاة ، حيث جرت العادة أن يُعطى للواحد منهم إقطاع متناسب مع رتبة أمير خمسة في النظام الحربي المملوكي رعاية لسلفه ، بشرط أن يندمج في الرديف السلطاني ، ويكون صالحاً للخدمة في إحدى الوظائف المدنية الصغرى زمن السلم^(١) . وذكر ابن إياس عن أبيه أحمد هذا أنه كان من المحبين إلى كثير من أمراء الدولة وأربابها ، وأنه عاش نحواً من أربع وثمانين سنة ،

(١) راجع القلشندي (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٥) ، ودائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) مقالة ابن إياس .

وأنه أنجب في حياته الطويلة خمسة وعشرين ولداً ما بين ذكور وإناث ، بقى منهم بعد وفاته سنة ١٥٠٢ م بنت وسبيان ، أحدهما محمد بن إياس نفسه ، وثانيهما الجمال يوسف . أما البنت فلعلها هي التي مات عنها زوجها الأمير قرقاس المصارع ، وهو من أمراء العشرات زمن السلطان قايتباي ، ووظيفته أمير آخور رابع في البلاط السلطاني ، وكانت وفاته سنة ١٤٧٢ م في وقعة البيرة على نهر الفرات ، حيث ظفر الجيش المملوك بقيادة الأمير يشبك بن مهدي يحميوش حسن الطويل (أوزون حسن) ملك التركان المعروفين باسم الشاة البيضاء (Ak Koyunlu) . وأما الصبي الجمال يوسف فكان بالزردكاشية (هندسة الدفعية) ، على عهد السلطان قانصوه الغوري ، ويظهر أنه كان خبيراً بفنه ، ويبدو وظيفته رئيسة في عمله .

يتضح من هذه الإشارات المنوعة أن ابن إياس نشأ في وسط مملوكي بحت ، وأنه متّ إلى بعض رجال الدولة المملوكية في عصر قايتباي والغوري بصلة المصاهرة والقربا . غير أنه مما يدعو إلى التعجب أن أحداً من معاصريه لم يترجم له بكثير أو قليل ، وأن مبلغ ما يعتمد عليه لإنشاء ترجمة حديثة لهذا المؤرخ الكبير لا يعدو نقفاً مبعثرة في كتبه التي ألفها ؛ وعيناً يرود الباحث غير ذلك من الكتب المعاصرة والمتأخرة ، كؤلقات الشيخين جلال الدين عبد الرحمن السيوطي وعبد الباسط بن خليل الحنفي ،

وهما من أسانذة ابن إياس بتقريره ، وكؤلفات السخاوى والنسرى
والأعظمى والبورينى والنبى والمحسبى والمرادى ، وهم أصحاب كتب
التراجم والسير للقرن التاسع والعاشر والحادى عشر والثانى
عشر للهجرة .

على أن فقدان هذه الترجمة لابن إياس لا يمجز السكاتب أو
يحميه عن محاولة السكتابة فيه ، بل هو خسارة مشوبة بريح وإن
جاء سليباً ، إذ يصبح اعتماده مقصوراً على ما هنالك من إشارات
لؤلؤاف عن نفسه ورجال عصره فيما ألف من كتب ، فيستشف
منها موقفه من الحوادث ، ويسبر بها دخائل شخصيته وأخلاقه .
ومن تلك الإشارات الخاصة بهوية ابن إياس أنه نشأ كأبيه
شهاب الدين أحمد ، وكأبى المحاسن كذلك ، فى فرقة أولاد الناس (١) .
وحج ابن إياس سنة ١٤٧٧ م دون أن يقوم على وظيفة معينة فى الركب
المصرى ، كذلك التى أسفدت إلى أبى المحاسن فى حجته ، على أنه
شهد ما لقيه الحاج ذاك العام من عنت وغلاء وفناء بمكة ، بسبب
ما وقع وقت ذاك بين السلطات المملوكية وبعض السكبين ، وجاء
وصفه لما حدث برهانا على ما هنالك من دَخْنٍ دائم وكره
متبادل ، بين ممثلى السلطان وذوات الحجاز وأمرائه ، طوال
عهد المائيك .

وظل ابن إياس معظم حياته متمتعاً بإقطاع وافر ، يرجح

(١) انظر ما سبق ، ص ٢٤ ، ٤٧ .

أنه من لدن السلطان الفورى ، فعاش عيشة راضية ، واشتغل بالكتابة والتأليف فى التاريخ ، ونظم الشعر والزجل والمواويل والموشحات والمزروعات ، فى مناصبات شتى .

على أن منظومات ابن إياس توجب الالتفات : فيها ما هو مدح أورثاء لسلطان أو سلطانة أو أمير ، ومنها ما هو تهنئة بالشفاء من مرض أو النجاة من محنة أمين من أعيان الدولة ، ومنها ما هو نقد أو تعقيب على بعض الأعمال الحكومية . فهل نستخلص من تلك القرائن ، كإفعل مارجوليوث (Margoliouth) ، أن ابن إياس تولى وظيفة مؤرخ الدولة (Historiographer) فى الحكومة المملوكية ، برغم أنه لم يذكر شيئاً من ذلك على التعمين فى كتبه ، وبرغم أن وظيفة بهذا الاسم لم تُعرف فى نظام المماليك ؟ أو نقول بأنه غدا من رجال الأدب المشغوفين بالمدح على هامش الحاشية السلطانية ، المتصلين ببعض رجالها كآبيه من قبل ، وإنه اعتمل نظم الشعر اجتهاداً للشهرة ، كلما وافته فرصة ؟ أو ترجح أنه أراد لنفسه مع السلطان محمد بن قايتباى مركزاً مشابهاً لمركز المينى مع السلطان برسباى ، أو لمركز أبى الحاسن مع السلطان المرجو محمد بن جقمق . على أنه مهما يكن من ترجيح أو ميل لهذا أو ذاك أو غيره مما يحتمل أن يكون وظيفة لابن إياس فى المحيط المملوكى ، فالواضح من أشعاره هذه ، ومناسباتها الخاصة والعامة ، أنه عاش فرداً متنبهاً عن كتب حوادث المجتمع الذى تغلب فيه ، وليس ذلك بصفته

مؤرخاً معنياً بتدوين الحوادث والأخبار ، بل لأنه كان رجلاً حياً حساساً بما يجري في دولة بدت عليها مخايل الاحتضار والزوال ؛ ورعاً كان أوضح دليل على هذه الحساسية فيه قصيدته بصدد ضرائب المشاهرة التي ألغها السلطان الغوري أواخر أيامه ، وورثته التي قالها في وقعة الفتح العثماني لمصر .

وحدث لابن إياس في منتصف سنة ١٥٠٨ م ما عكّر عليه صفو حياته المطمئنة ، إذ تآزمت أحوال السلطان الغوري لضيق سبل المال اللازم للصرف على مماليكه ، فعمد إلى إخراج أولاد الناس من أجناد الحلقة عن إقطاعاتهم ، وقطع الرزق الأحباسية والأوقاف عن أهلها ، وأطلق لماليكه العنان ليهاجوا أصحاب تلك الإقطاعات في بيوتهم ، ويأخذوا منهم مناشيرها غصباً أو ضرباً ، إذا احتاج الأمر إلى الضرب والإخراق و " البهدة " . ونال ابن إياس من تلك السكارثة ما نال غيره من أبناء طبقة ، فذهب عنه إقطاعه الوافر إلى أربعة من المماليك بمكاتبات سلطانية ؛ غير أنه لم يبق بغير إقطاع مدة طويلة ، إذ وقف للسلطان الغوري أروائل سنة ١٥١٠ م بقصة يشكو فيها حاله ، وقدمها إليه وهو في طريقه للعب الكرة بميدان الفلعة ، فاستجاب السلطان شكواه ، وردّ عليه إقطاعه ؛ ومدحه ابن إياس من أجل ذلك بقصيدة طويلة من نظمه المعتاد .

غير أن ابن إياس لم يكن من المعجبين حقاً بالسلطان الغوري

وأعماله ، يشهد بذلك ما كتبه بصدده بعد وفاته في كثير من
المناسبات بكتابه الكبير في التاريخ ، واسمه يدائع الزهور في
وقائع الدهور . وهذا الكتاب الشامل لتاريخ مصر منذ أقدم
المصور إلى أوائل العهد العثماني ، هو الذي جعل ابن إلياس خليفاً
بمركز الزعامة بين معاصريه من المؤرخين في مصر ، وأواخر
القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلادي . وبدأ
ابن إلياس تأليف كتابه هذا حوالي سنة ١٤٩٣ م ، وظل معنياً
به حتى أواخر أيامه ، فجاء في أحد عشر جزءاً ، وكان في عمره
أن يضيف إليه ليكمل اثني عشر جزءاً^(١) ، لولا موته سنة
١٥٢٤ م . ثم تناول النساخون هذا الكتاب ، فنقلوا منه نسخاً
بعضها كاملة وافية ، وبعضها مختصرة ناقصة ، والثانية هي أغلب
ما بأيدينا منه حتى الآن ، ومن إحدى هذه النسخ الناقصة نُشر
الكتاب في القاهرة ، فجاء بعيداً عن الأصل ، خلواً من أهم جزء
من أجزائه^(٢) .

(١) تملك مكتبة فاضل إستانبول أربعة أجزاء غير متتابعة من هذا الكتاب
وهي بخط المؤلف ، وفي حردها (Colophon) أنه انتهى من كتابة الجزء
الرابع أوائل سنة ٩١٠ هـ (١٤٩٥ م) ، ومن الخامس أواخر تلك السنة
الهجرية نفسها ، ومن الثامن أواسط سنة ٩١٣ هـ (١٥٠٧ م) ، ومن
الحادي عشر أواخر ٩٢٨ هـ (١٥٢٢ م) . ووجد ابن إلياس في نفس الصفحة التي
وردت بها الإشارة الأخيرة أنه سوف يقوم على كتابة الجزء الثاني عشر ،
وهو ما لم يكتبه بسبب وفاته ، أو أنه كتبه ولم يعثر عليه أحد حتى الآن .

(٢) أدركت هذا النقص جمعية المستشرقين الألمان بإستانبول ، فنشر =

ومن مؤلفات ابن إياس في التاريخ كذلك كتاب عقود الجمان في وقائع الأزمان ، وهو مختصر مستقل لتاريخ مصر ، وأبست له أية علاقة بكتابه الكبير أو بالنسخ المنزلة منه ، ثم كتاب زهرة الأمم في العجائب والحكم ، وهو تأليف صغير في تاريخ العالم ، وكتاب صرح الزهور في وقائع الدهور ، وهو مؤلف شبي في قصص الأنبياء والرسل ، وربما كان لغير ابن إياس من المؤلفين ، رغم إشارته هولي بعض محتوياته في الفصل السابع من الجزء الأول من بدائع الزهور . ولابن إياس كذلك كتاب نشق الأزهار في عجائب الأقطار ، وهو كتاب في الفلك والهيئة وتركيب الكون (Cosmography) ، وآثار مصر الفرعونية وملوكها . وذكر ابن إياس في مقدمته لهذا الكتاب أنه قصد بتأليفه أن يجمع فيه أغرب ما سمع وأعجب ما رأى ، ولا سيما " عجائب مصر وأعمالها ، وما صنعت الحكماء فيها من الطلبات المحكمة في البرى " ، وكان فراقه منه سنة ١٥١٨ م ، وكثيراً ما استمد منه علماء أوروبا في القرن التاسع عشر الميلادي .

على أن شهرة ابن إياس تستند كلية إلى كتابه الأول في التاريخ ، إذ صار به عمدة المؤرخين في أحوال دولة المماليك وأخبارها مدة الطور الأخير ، والرجع الرئيس لحوادث فتح

== الأستاذ كاله Kahle ، والدكتور محمد مصطفى ، والرحوم سورنهم (Sobernheim) ، ثلاثة أجزاء جديدة من هذا الكتاب .

العثمانيين لمصر ، في أسلوب بديع ؛ ولذا ميزه مارجوليوث عن جمهرة المؤرخين المسلمين في مصر وغيرها بقوله : " إن أسلوبه في الكتابة والتأليف ، ونعته في التفكير ، يتم كل منهما عن فردية واستقلال في الرأي قل أن يقربه فيه معظم المؤرخين ^(١) " .

والواقع أن ابن إلياس كان على جانب من القدرة في النقد ، فلم يقنع بسرد الحوادث والوقائع والوفيات على وتيرة أغلب السالفين من كتاب التاريخ ، بل وقف بين الحادثة والأخرى يشرح ويعقب ويفلسف ، مع شيء من القسوة في الحكم ، والجرأة في التقدير ، والمبالاة نوعاً في التصوير . ورعنا شجعه على ذلك اتصاله ببعض أعيان البلاط السلطاني في عهود مختلفة ، كالأمير تمتاز الأتابك ، والأمير أقيردى الدوادار الكبير ، وكلاهما من رجال عصر قايتباي ، وكأبي بكر بن منهر ، وولده الهدى محمد ، والقاضي محمود بن أجا ، وهم ممن شغل وظيفة كاتب السر في الدولة ؛ وهذا فضلاً عن صلته بأخيه الجمالي يوسف ، الذي أمدّه بما جرى بالقلمة من أخبار ، ولا سيما أخبار المدفعية التي عني ابن إلياس بتدوينها والإشارة إلى إهمالها على عهد القوري .

أما عن أخلاق ابن إلياس ، فلا سبيل لمعرفة ما اشتهر به من صفات عند معاصريه ، ما دام الموجود من كتب المعاصرين والمؤرخين لا ينبي عنه بشيء ألبتة . على أن كتبه التي أنفها ،

(١) انظر (Margoliouth : Lectures On Arabic Historians

وملاحظاته التي أودعها إياها عن نفسه وحوادث عصره ورجاله ،
تدلّ على الكثير من كنه شخصيته الكبيرة : فضخامة
مؤلفاته برهان على أنه ظلّ طول حياته مجدداً في الكتابة ، ودؤوبه
على تدوين الحوادث يوماً بيوماً وشهراً شهراً في الأجزاء المعاصرة
من تاريخه يشهد بدقة ملاحظته وشدة استقصائه للحقائق ،
وقسوته في الحكم على الناس تخبر بعلو مستواه الخلقى ، وتناول
الحكم العثماني في مصر بالنقد والسخرية أحياناً لإهمال رجاله مصالح
المصريين — وذلك رغم ما أحاطت السيادة العثمانية في القاهرة من
رهبة وخشية — عطية مكانة سامية بين المؤرخين وغير المؤرخين .
ومن يدري ؟ ربما كان موقفه هذا من الحكم العثماني هو السبب
في خفاء ترجمته من كتب التراجم .

ولابن إياس معاصرون أربعة من المؤرخين ، وهم السيوطي ،
وابن خليل ، وابن طولون الدمشقي ، وابن زنبيل الرمال . ولكل
من أولاء فضل معلوم ومنهم ظاهر فيما يجمع للتاريخ المصري من
تراث محفوظ ؟ وإذا لم يبلغ أحدهم مبلغ ابن إياس ، أو يقربه في
المقدرة على التأليف الضخم في التاريخ ، فذلك راجع إلى أن
ابن إياس قصر نفسه على الكتابة في ذلك الفرع وما يتصل به
فقط (وهذا عدا نظم الشعر أحياناً) ، على حين أن معاصريه
أولئك اشتغلوا بالتاريخ وغيره من العلوم والفنون والصناعات .
ومثل ذلك السيوطي صاحب الأخبار الطوال في أشات العلوم

في عصره ، فإنه لم يترك ميداناً من ميادين المعرفة دون أن يُجري فيه قلبه ، وهذا فضلاً عن تدخله في بعض المسائل العامة في عصره .
 †ولد جلال الدين عبد الرحمن بن محمد السيوطي ، سنة ١٤٤٥ م بالقاهرة ، من أسرة ينتهي أصلها إلى شيخ من أهل الحقيقة والتصوف اسمه هام الدين الحضيري — نسبة إلى محلة الحضيرية (١) ببغداد . وجاء هذا الشيخ إلى أسيوط ، وعاش بها زمن الدولة الأيوبية ترجيحاً ، وأقامت أسرته بها جيلاً بعد جيل ، وأخرجت رجالاً نابهين في المجتمع الأسيوطي في العصور الوسطى ؛ فمنهم نائب الحكيم (القاضي) ، والمحاسب ، والتاجر ، والمتمول الخبير ؛ ومنهم من اتصل بالأمير شيخو الناصري إبان قيامه على إخماد ثورة الأحذب بالصعيد سنة ١٣٥٣ م ، في عهد السلطان صالح بن الناصر أحمد ، وهذا الأمير هو صاحب الجامع والمناقباء المعروفين باسمه بسوقه منعم فيما بين الصليبية والرميلة بالقاهرة الحالية (٢) . أما محمد أبو عبد الرحمن السيوطي فهو آخر من

(١) يظهر أن هذه النسبة ليست بنجوة من الشك ، على الرغم من أن السيوطي نفسه (حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٥٥) هو الذي رجحها . ذلك أنه كان بأسيوط والقاهرة كذلك موضع اسمه الحضيرية زمن السيوطي ، وربما كان ترجيحه لمحلة بغداد من باب إرجاع أصله إلى جهة بعيدة عظيمة الشأن ، لاسيما أنه جهد في أحد كتبه الصغرى أن يقول كذلك إنه أنصاري جعفري الأرومة ، وإن جده من أم شريفة النسب .

(٢) انظر المقرئى : المواعظ والاعتبار — طبعة بولاق — ج ١ ، ص ٣١٣ ، ٤٢٠ ؛ والسيوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٥٥ .

أقام من تلك الأسرة بأسبوط ، إذ انقطع من دون رجالها جميعاً
لطلب العلم والتعليم ، ورحل من أجل ذلك في حدائقه إلى
القاهرة ، وأقاد على ما يظهر من صلة سلفه بالأمر شيخو ، فتولى
درس الفقه بالجامع الشيخخوني ، وخطب بجامع ابن طولون ،
وأنف كثيراً في الفقه والنحو ، وتوفي في عشر الحسين ،
سنة ١٤٥١ م ، ولما يبلغ ابنه عبد الرحمن ست سنين^(١).

وكانت والدته عيسد الرحمن أم ولد تركية ، أنجبته وأبوه
بالغ في السن مبلغ النضج ، فناء عبد الرحمن ناضجاً من يومه ،
على قول الإخصائين في علم الأجناس . وكأنما توسم فيه والده
شيئاً من ذلك ، إذ قرأت به عيناه حين رزقه وهو مشرف على
الحسين ، فعنى بتعليمه أشد عناية ، وحفظه جزءاً كبيراً من

(١) ترجم السيوطي لأبيه في كتابه حسن المحاضرة (ج ١ ،
ص ١٥٥ ، ٢٠٨ — ٢٠٩) ، وفي بقية الوعاة في طبقات النحاة (ص
٢٠٦ — ٢٠٧) . والسيوطي نفسه غنى بترجمة المعاصرين والتأخرين
والحدثين ، إذ يوجد له عدا ترجمته الذاتية في حسن المحاضرة (ج ١ ،
ص ١٥٥ — ١٦١) ، ترجمة في كل من السخاوي والشعراني والغزالي ،
والبوريني وابن العماد الحنبلي وابن أبياس ، وعلى مبارك باشا ودائرة المعارف
الإسلامية وفيليب حتى . ويوجد في ابن طولون الدمشقي (الفلك المشحون ،
ص ٦) إشارة إلى ترجمة ذاتية أخرى للسيوطي في كتابه بقية الوعاة ، غير
أن المطبوع من هذا الكتاب لا يشمل ترجمة له أثبتة . وذكر البني
(السنا الباهر ، ص ٧٧) أن للسيوطي كذلك ترجمة ذاتية تالفة في كتاب له
أسمه التحدث بنعمة الله تعالى ، وهذه عدا ما هنالك من تراجم أخرى
يقلم تلميذه الشاذلي والداودي .

القرآن ، واستصحبه أكثر من مرة إلى مجلس ابن حجر في الحديث . وغدا عبدالرحمن محظوظاً كذلك في أوصيائه ، إذ لحظوه برعايتهم ونظرهم ، ونجحوا في تقريره على وظيفة الجامع الشيخوني بعد وفاة أبيه ، ولذا نشأ يتيماً ناعم البال .

واستطاع عبد الرحمن أن يختم القرآن ، وهو دون الثامنة من عمره ، فدل بذلك على ذاكرة قوية وحافظة واعية . ثم أخذ في طلب العلم بأنواعه ، فلم يتعاص عليه فرع أو يتعاضده فن ، إلا الحساب فإنه ثقل عليه النظر فيه لعدم ملاءمته طبيعته ، وإلا النطق فإنه كرهه وعزف عنه لسبب مشابه . أما ما عدا ذلك من المعلوم ، كال تفسير الحديث والفقه ، والنحو والمعاني والبيان والبديع (على طريقة العرب والبلغاء ، لأعلى طريقة المعجم وأهل الفلسفة) ، وأصول الفقه والجدل ، والتصريف والإنشاء والترسل ، والفرائض والقراءات والطب ، فالسيموطي نفسه قال إنه درسها حتى بلغ فيها درجات متفاوتة في السكمال ، وإنه رزق التبحر في السبعة الأولى منها حتى فاق أشياخه كلهم — فضلاً عما هو دونهم علماء وزمناً — ، وإنه اخترع علم أصول اللغة وورثه ، وإنه وصل إلى مرتبة " المجتهد المطلق " في الحديث والفقه والعربية باجتماع " آلات الاجتهاد " كلها لديه ، ولو شاء أن يكتب في أية مسألة مصنفًا بأقوالها وأداتها العقلية والقياسية ، ومداركها ونقوضها وأجوبتها ، مع الموازنة بين اختلاف المذاهب فيها ، لقدرة على ذلك

كله تماماً في غير عناء . ولا غرو في ذلك مادام أن السيوطي نفسه قال مرة لشيخه السخاوي وهو يحاوره نظماً : ” علمي كبحر من الأمواج ملتحط ” .

بلغ عبد الرحمن السيوطي ذلك المقام الزاخر من العلم — مع المباهاة العريضة بكيفه وكنه لديه — بعد حياة دراسية طويلة بالقاهرة ، وأسفار كثيرة في البلاد المصرية وغيرها . وتفصيل ذلك بتقريره أنه درس على ستمائة شيخ من شيوخ عصره بمختلف البلاد ، وأنه سافر من أجل ذلك إلى مراكز العلم بدمياط والإسكندرية ، والحلة الكبرى والفيوم ، ومكة حيث حج وجاور سنة كاملة . وقد تجمعت لديه أثناء ذلك كله برامات وشهادات وإجازات كثيرة ، أولها إجازة بتدريس اللغة العربية سنة ١٤٦١ م ، وعمره وقتئذ سبعة عشر عاماً ، ومن المعروف أنه بدأ التأليف تلك السنة بكتاب في شرح الاستعاذة والبسملة .

على أن السيوطي لم ينصرف إلى تدريس اللغة العربية على ما يظهر ، بل باشر تدريس الفقه بالجامع الشيعوني الذي لم تنقطع عنه وظائفه منذ وفاة أبيه ؛ وكان تعيينه هناك بسفارة شيخه البلقيني سنة ١٤٦٥ م . ثم تصدّى السيوطي للإفتاء وإملاء الحديث ، بجامع ابن طولون سنة ١٤٦٧ م ؛ وأضيف إليه تدريس الحديث ووظيفة الإسماع بالخانقاه الشيعونية سنة ١٤٧٢ م ، بمساعدة الأمير إسماعيل الأشقر ؛ كما تولى مشيخة التصوف بتربة برقوق نائب الشام التي

تقع بباب القرافة الحالية ، بعناية بلديته أبي الطيب السيوطي .
 وبقي السيوطي مثولياً تلك الوظائف كلها حتى ناهز الأربعين من
 عمره ، ثم انتقل عنها إلى مشيخة الخانقاه البيبرسية سنة ١٤٨٦ م ،
 وهي أكبر خوانق القاهرة وأوسمها^(١) أوقافاً في عصره ،
 وصاحب الفضل في تعيينه عليها الخليفة المتوكل على الله عبدالعزيز
 العباسي . ومن ثم انقطع السيوطي عن التدريس والإفتاء والإملاء
 والإسماع ، وأخذ في التجرد للعبادة كما قال الشعراني ، أو أنه
 أنجع وتمشيط على قول السخاوي . وشرع السيوطي منذئذ
 في تحرير مؤلفاته ، وربما ألهاه التكاثر عن الإتقان ، فلم يعم
 في بعض الأحيان ، بل جرى قلمه بالتأليف السريع حتى أربت
 كتبه على الجسامة ، سوى ما غسله ورجع عنه ، ولذا جاءت أكثر
 مؤلفاته^(٢) جملاً لا تأليفاً .

وهال المعاصرين والمتأخرين والمحدثين أن ينسب ذلك العدد
 الجلم من الكتب إلى مؤلف واحد ، وفسره السخاوي بأن
 السيوطي اختلس كثيراً من تصانيف ابن تيمية وابن حجر
 والسخاوي وغيره ، من مجموعة عُثِرَ عليها كلها بمكتبة المدرسة

(١) المفريزي (الواعظ والاعتبار — بولاق — ج ٢ ، ص ٤١٦) .

(٢) لم تقتصر كثرة المؤلفات على السيوطي وأشباهه من المؤلفين

المسلمين ، بل صدقت تلك الظاهرة كذلك على بعض المؤلفين الغربيين في

العصور الوسطى ، ومثال ذلك رامون لول الإسباني ، إذ بلغت مؤلفاته

خمسة . (انظر : Alison Peers : St. John of the Cross. p. 61)

الحمودية ، وأنه عدل فيها يسيراً ، وقدّم وأخّر ، ونسبها لنفسه بعد أن هوّل في مقدّماتها .

غير أنه مهما قيل في هذا الباب ، فإن مهمة الاختلاس لا يمكن أن تنصبّ على جميع مؤلفات السيوطي ، بل لدينا من حقيقة الحال العلمية في عصره ، ومما يستطاع استنتاجه من نفسه وعقليته وأخلاقه وأحواله ، ومن بساطة المسائل التي أفرد لها كثيراً من كتبه ، ومن أحجام تلك الكتب التي أدمجها في تعداده الضخم ، ما يساعد على تعليل ذلك التكثر الخارق في التأليف تعليلاً مقبولاً . ذلك أن عصر السيوطي — وهو الحقبة الأخيرة من عهد المماليك عصر المستقلة — كان عصر الجمع والتأليف والتكميل والشرح والحواشي ، وليس به في الواقع من المؤلفات — فيما عدا الكتب التاريخية — ما يصح أن يوصف بغير ذلك من الصفات . ومثال ذلك من كتب السيوطي الكبرى كتاب تكملة تفسير القرآن للشيخ جلال الدين المحلى ، والمعروف أن السيوطي أنهاء في أربعين يوماً ، وكتاب طبقات الحفاظ ، وهو تلخيص وتكملة للذهبي ، وكتاب لب الباب في تحرير الأنساب ، وهو اختصار لعز الدين بن الأثير ، واستغرق السيوطي في إنجازها عشرة أيام فقط . ثم أن السيوطي اعتقد في نفسه أنه بلغ درجة الاجتهاد المطلق في الحديث والفقه والعربية ، وأنه لو شاء أن يكتب في كل مسألة مصنفاً تاماً لاستطاع كما تقدّم ،

وأنه المبعوث على رأس المائة التاسعة للهجرة ، وأنه رأى النبي عليه الصلاة والسلام وخطبه في البقعة والنام خمسين مرة ، فطلبت منه تلك الدعاوى أن يكتب كثيراً ليدعم أقواله . يضاف إلى ذلك أن السيوطي عاش عضواً ، تكلفه القضية الواحدة رسالة أو أكثر يكتبها في يوم أو ليلة . ليرد بها على من أغضبه أو خالفه أو سخر منه ^(١) . ومن الأمثلة الدالة على أثر ذلك كله في عدد مؤلفات السيوطي كتاب إرشاد المهتدين في نصرة المجتهدين ، وكتاب الرد على من أخذ إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض ، وكتاب التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مائة ، وكتاب الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف ^(٢) ، وكتاب تنوير الحلكة في إمكان رؤية النبي والملك . ثم إنه دأب على التدخل في

(١) قال السيوطي ، نقلاً عن الشمراني (ذيل الطبقات الكبرى ، من ٤) : " وخالفني أهل عصرى في خمسين مسألة ، فألفت في كل مسألة مؤلفاً بينت فيه وجه الحق " ، وهذا عدا ما كتبه لتهريب موقفه من مسائل معينة كما سيلي . انظر كذلك ابن أبياس : بدائع الزهور — بولاق — ، ج ٢ ، ص ٢٨٠ .

(٢) أشار السيوطي إلى مسألتى اجتهاده ومبعوثيته إشارات خفيفة في كثير من مؤلفاته ، غير أنه خلق النقاب تماماً في هذا الكتاب ، إذ قال : " فإن ثم من يتفخ أشدافه ويدعى مناظرى ، وينسك على دعوى الاجتهاد والتفرد بالعلم على رأس هذه المائة ، ويزعم أنه يمارضني ويستجيش على بمن لو اجتمع هو وهم في صعيد واحد ، ونفخت عليهم نفخة واحدة صاروا هباء منثوراً . (راجع مقدمة الدكتور فيليب حتى لكتاب نظم العقيان ، صفحة ش — من) .

المسائل العامة في عصره ، ومثل ذلك قيامه في مسألة ابن الفارض .
سنة ١٤٧٠ م ، وكتابه في ذلك مقامة اسمها قمع المعارض في
نصرة^(١) ابن الفارض ، وإفتاؤه من غير تفويض بأنه لا يجوز
البناء على ساحل الروضة ، لأن الإجماع منمقد على منع البناء في
شطوط الأنهار الجارية ، وله في ذلك " كتاب " كذلك .
ثم إن السيوطي أحب التسلّي بالكتابة في موضوعات واهية تافهة ،
ومثل ذلك كتاب الإصفار عن قلم الأطفار ، وكتاب بلوغ السارب
في قص الشارب ، وكتاب الوديك في فضل الديك ، وكتاب مسألة
ضرب زبداً فاعماً ، وكثير من هذه لا يعدو كراسة أو ورقة أحياناً .

ومهما يكن فليس لجميع جولات السيوطي في علوم عصره
ومسائله الخاصة والعامة متسع كافٍ^(٢) بهذه السطور ، إذ البحث
محدود بعنوانه ، والتعريف فيه بالسيوطي قاصر على تقديره
بين المؤرخين بمصر في حقبة معينة ، فلا يجب أن نطعن كثيراً
القول في غير ذلك من أشقات نشاطه على ما هنالك من غرض
أصلي ، وهذا بالإضافة إلى أن مؤلفاته التاريخية ليست سوى شيء قليل

(١) انظر ابن لباس : بدائع الزهور — بولاق — ج ٢ ، ص ١١٩ ؛
ومجموعة مؤلفات السيوطي الصغرى ، بدار الكتب المصرية ، تحت
رقم ٩٨ مجاميع .

(٢) راجع السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٠ .

بالقياس إلى كتبه في غير التاريخ من العلوم . ومن تلك المؤلفات التاريخية كتاب حسن المحاضرة بأخبار مصر والقاهرة ، في جزئين ، وهو تاريخ للبلاد المصرية والقاهرة عاصمتها ، مع بعض فصول إضافية في النظم المملوكية وأساليبها ، وطبقات العلماء والأسلاء والصوفية في مصر ؛ وقد كتبه السيوطي في عصر السلطان قايتباي ، واعتمد في تأليفه على ثمانية وعشرين مؤلفاً عددها في مقدمته . ومن مؤلفاته كذلك كتاب تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ، وكتاب تاريخ السلطان الأشرف قايتباي ، وكتاب بدائع الزهور في رقائق الدهور ، وهو كتاب شعبي في التاريخ العام ، وكتاب تاريخ أسيموط ، وكتاب كوكب الروضة ، وهو تاريخ لجزيرة الروضة جنوبي القاهرة ، ألفه السيوطي سنة ١٤٨٩ م ، ونقل فيه كثيراً مما كتب المقرئ في هذا الموضوع ، وكتاب تاريخ العمر ، وهو ذيل على أنباء العمر لابن حجر ، وكتاب المنتقى من تاريخ ابن عساكر ، وكتاب التواريخ في علم التاريخ ، وهو رسالة قصيرة في أصل انفساق المسلمين على جعل الهجرة النبوية مبدأ للتاريخ الإسلامي ، وإجماعهم على اعتبار الحرم أول الشهور ، مع شرح وتعليل لأسماء الشهور الهجرية . وللسيوطي عدا ذلك كتب كثيرة في التراجم والطبقات ، ومنها كتاب نظم العقيان في أعيان الأعيان ، وكتاب بغية الوعاة في طبقات النحاة ، وكتاب الملتقط من الدرر الكامنة ، وهذا فضلاً عن مؤلفاته في سائر علوم عصره .

وقيل بحق أن السيوطي لم يكن مؤلفاً في معظم هذه الكتب التاريخية وغيرها ، بل إنه جمع فأوعى فقط ، واختصر ونحس فحسب ، وربما نسب أنفسه مؤلفات لغيره ، كما قرّر السخاوي . على أن ذلك ليس بالقليل - أو القريب - في المصوّر الوسطي في الشرق والغرب ، ولم يسلم من تلك التهمة كل من المقرئ وأبي المحاسن ، وهما من أساطين المؤرخين عصر في القرن الخامس عشر الميلادي . ثم إنه ليس من النصفة في شيء أن يقاس السيوطي وغيره بمقاييس اليوم ، بل إن فضل السيوطي فيما صنع على وجه العموم واضح - وإن جاء فضلاً مشوباً - إذ حفظ بتلك الطريقة كتباً مفقودة أصولها حتى الآن ، ولولا قلعه لما وصل منها شيء المتأخرين . ثم إن السيوطي وضّح بطريقته هذه حال العلوم والعلماء في عصره ، ونفّق كتباً ظلت بعيدة عن متناول الناس والعامة لتدريتها أو ضخامتها ؛ وانتشرت تلك الكتب في نوبها المختصر إلى جميع البلاد الإسلامية ، من مراكن والتكرور إلى الهند واليمن ، وذاع معها صيت السيوطي ذيوماً يشهد به وجود الكثير منها بخطه ، في مختلف المكتبات الإسلامية وغير الإسلامية القديمة ، ولا سيما بالهند .

ومما أغان السيوطي على التفرغ لكتابة ما كتب من مؤلفات ضخمة ورسائل صغيرة ، أنه ظل طويلاً على مشيخة البيرونية متممًا بوظيفتها الوافرة ، منذ تولّاها أواخر عهد قايتباي ،

وهذا على الرغم من قيام بعض أعدائه من القضاة وغيرهم بالوقفة به عند ذلك السلطان الطيّب . غير أنه أغضب قايتباي آخر سنة من حكمه (١٤٩٥ م) ، بسبب طلوعه إلى حضرته في مسألة وعلى رأسه الطليسان ، مخالفاً بذلك بعض التقاليد المرعية ؛ ومع أنه عتوب على مخالفته ، فإنه أصر على صحة موقفه ، وكتب في ذلك رسالة اسمها الأحاديث الحسان في فضل الطليسان .

وامتنع السيوطي من بعد ذلك عن الطلوع إلى السلطان ، بل رفض أن يذهب مع العلماء لتهنئته بالشفاء من مرض ألم به ، محتجاً بأن عدم طلوع العلماء للملوك سنة ، وألّف في ذلك كتاباً سمّاه ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين^(١) .

ومع هذا كله بقي السيوطي على وظيفته بالبيرية حتى وفاة قايتباي . غير أنه أفسح لأعدائه بمواقفه هذه سبيلاً إلى تأجيج الفار عليه ببلاط السلطان الجديد ، وهو محمد بن قايتباي ؛ وكأما أحسن السيوطي بما سوف يناله قريباً من عزل عن وظيفته الرغيدة ، فحسن للخليفة المتوكل على الله عبد العزيز العباسي سنة ١٤٩٦م أن يولّيه قاضياً كبيراً على جميع القضاة بمصر والشام وسائر الممالك الإسلامية المجاورة ، وأن يجعل بيده الولاية والعزل فيهم مطلقاً ، وهي وظيفة لم يحرزها قط في العالم الإسلامي سوى القاضي تاج الدين ابن الأعر في الدولة الأيوبية ، بعد أن صار لتلك الدولة سيادة

(١) الشعرائي : ذيل الطبقات الكبرى ، ص ١٩ — ٢٠ .

فعلية على جميع بلاد الشرق الأدنى . على أن السيوطى لم يفكر
فى تلك الوظيفة لتكون له مخرجاً من البيرونية فحسب ، بل يظهر
أنه أراد أن يستخدمها فى النيل من بعض أعدائه ، وربما رأى
فيها تحقيقاً لما قال به من وجوب قيام الخلافة القطبية الباطنة فوق
الخلافة العباسية الظاهرة^(١) . ثم قامت القيامة بين القضاة والناس ،
حين شاع أن الخليفة عهد إلى السيوطى بتلك الوظيفة ، وما زال
القضاة بالخليفة حتى أشهدوا عليه بالرجوع عنها ، واعترف للملأ
بأن السيوطى هو الذى اقترحها عليه^(٢) .

ثم حدث فى سنة ١٢٩٧ م ، أن قطع السيوطى جسيملة
الصوفية بالخانقاه البيرونية ، بحجة أنهم خانوا طريقتهم ونسوا
صوفيتهم ، فنار نارهم عليه ، وحملوه بأثوابه ورموه بفسقية
الخانقاه ، وكادوا أن يقتلوه . وافترض أعداؤه تلك الفرصة ،
ومنهم الأمير طومان باى اللوادار ، فحوكم السيوطى وثبت لدى
قضائه أن طعمه أفسده ، وأن تفكيره فى الاستيلاء على دراهم
الصوفية الفقراء جعله غير صالح للبقاء فى مشيخته ، ولذا منحله
واعتكب السيوطى من ثم فى بيت له بجزيرة الروضة^(٣) ، حتى

(١) انظر السيوطى : كتاب التنبؤ بمن يبعثه الله على رأس كل
مائة . (دار الكتب المصرية ، رقم ٩٨ مجاميع) .

(٢) ابن لياس : بدائع الزهور — بولاق — ، ج ٢ ، ص ٣٠٧ .

(٣) ابن لياس : بدائع الزهور — بولاق — ، ج ٢ ، ص ٣٣٩ .

فيليب حتى : مقدمة نظم المقيان ، صفحة ر .

إنه لم يفتح شبابه على المظلة على النيل مدة ، وكتب في ذلك رسالة اسمها تأخير الظلمة إلى يوم القيامة . على أن سمعته لم تنته بتلك الحادثة ، إذ تسلم طومان باي الدوادار سنة ١٥٠٠ م ، وخاف السيوطى بطشه ، فاختفى بجهة غير معلومة ، وظلّ مختفياً شهوراً حتى وفاة هذا السلطان وتولية قانصوه الغورى بعده أواخر تلك السنة . وعندئذ رجع السيوطى إلى بيته بالروضة^(١) ، غير أنه فضل البقاء في عزلته ، ولم يقبل أن يعود إلى الحياة العامة ، إذ عرض عليه الغورى وظيفة المشيخة بمدرسته ومدفنه بالقبة الزرقاء فرفض^(٢) ، وما زال على انزوائه حتى مات سنة ١٥٠٥ م . وللسيوطى قبر بأسيوط يزار ، واسكنه مزار ، إذ المعروف أنه دفن بحوش الأمير قوصون ، خارج باب القرافة بالقاهرة .

أما عبد الباسط بن خليل الحنفى ، فهو سليل أسرة مملوكية معروفة بالقاهرة منذ أوائل القرن الخامس عشر الميلادى على الأقل ، وأبوه الأمير المحدث خليل بن شاهين الذى تقدم التعريف به ضمن معاصرى القرى من المؤرخين البارزين ، وأمه الأميرة أصيل أخت امرأة السلطان برسباى . ومولد عبد الباسط سنة ١٤٤٠ م ، بمطية بأطراف أسيا الصغرى ، حيث كان أبوه

(١) ابن لياس : بدائع الزهور — بولاق — ج ٢ ، ص ٣٩١ .

(٢) الثمرانى : ذيل الطبقات الكبرى ، ص ٢١ .

متولياً نيابتها من قبل السلطان جقمق ، وقضى طفولته وشبابه متنقلاً بين البلاد التي اتفق لأبيه الإقامة فيها موظفاً مريضاً عنه ، أو طرخاً منسياً أو مغضوباً عليه ، مثل حلب والخليل والقدس ودمشق وبغداد والقاهرة ومكة وطرابلس ، فتلقى علوم عصره على شيوخ مختلفين ، ومنهم أبوه الذي أقرأه الكثير من الكتب في شتى العلوم ، كما علمه اللغة التركية أيضاً .

وشغل عبد الباسط كآبيه بالتفصيل الواسع ، فذهب مثله إلى بلاد كثيرة من الغرب لم تعينها الراجع ، وناقى هناك دروساً في الفقه والعلوم والطب حتى آتقها . ثم استقر أخيراً بالقاهرة ، بعد وفاة أبيه خليل سنة ١٤٦٨ م ، فنزل بالمكانه الشيخونية وتصفوف ، ونعرف إلى السيوطي متولى مشيختها ، وإلى يونس الرومي المنطوق نزيلها ، وسمع كذلك على غيرها من علماء القاهرة ، واعتبره السجاولي من تلاميذه في التاريخ .

واشتغل عبد الباسط بعد ذلك بالتأليف في مختلف العلوم والفنون ، ونظم ونثر ، غير أن المراجع لا يثني بشيء يدل على غير ذلك من عمل رسمي وظَّف عليه في الدولة المملوكية . ومن مؤلفاته المعروفة في التاريخ كتاب نزهة الأساطين فيمن دلى مصر من السلاطين ، وكتاب نيل الأمل ، وهو تكملة لتاريخ الذهبى ، وكتاب الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم ، وهو ذيل لتاريخ أبي المحاسن المشهور ، وكتاب تاريخ الأنبياء الأكار

وبيان أولى العزم منهم . وله عدا ذلك كتاب الوصلة في مسألة
القبلة ، وكتاب الحكمة والمر في كون الضوء ، وكتاب القول
المانوس ، وكتاب شرح القانونشة في الطب ، وكتاب عمدة الطالبين
ورغبة الراغبين في الفقه . وهذه المؤلفات كلها لا تزال في
ظلمات المخطوطات ، يختلف مكاتب الشرق والغرب ، ما عدا
الكتاب الأخير فإنها مطبوع طبعا سقيا .

ولبعد الباسط فوق هذا نظم مبعثر في كتب معاصره ،
ولا سيما ابن إياس الذي نعته بلفظ " شيخنا " في تاريخه أكثر
من مرة ، ولا بد أن مؤلفات عبد الباسط نفسها تحوى منه كثيرا .
ومن ذلك النظم أبيات في مناسبات شتى : مثل وفاة النيل بعد توقف
طويل سنة ١٢٩٣ م ، وحرثية في وفاة السيوطى سنة ١٥٠٥ م ،
وفي هذين الثلثين وغيرهما دليل على أن عبد الباسط عاش كابن إياس
— وأبى المحاسن كذلك — بين رجال الأدب المتقلبين في هامش
البلاط السلطاني ومجتمعات الخاصة في دولة المماليك . والواقع أن
عبد الباسط مشابه لابن إياس في كثير من الوجوه ، فكلاهما ابن
أمير مملوكي ومن أولاد الناس على قول مصطلح العصر ، وكلاهما
مؤرخ وشاعر . على أن عبد الباسط امتاز عن صديقه المؤرخ
بأنه ألف في غير التاريخ من علوم زمنه ، كما امتاز على سائر أصفائه
ومعاصريه من أهل القلم بأن ما لدينا من نماذج نظمته خلو
من التهاني والمدح ، بل يدل على أنه عاش متعزلا مترفعا ،

وجاء ما كتبه فيه كلٌّ من السخاوي وابن إلياس مصداقاً لذلك تماماً ، إذ قال أولهما بأنه : " إنسان ما كن أصيل متجمع عن الناس " (١) ، ووصفه ثانيهما وصفاً قلمياً دقيقاً تناول هيئته ووزنه وأخلاقه ، حين قال إنه " كان صفته طويل القامة نحيف الجسد ، وكان يري ذؤابة شعر في رأسه على طريقة الصوفية ، وكان له أنف وافر جداً وكان ضئيلاً بنفسه ، وعنده عيس طباع مع شحم زايد ، وكان معظما عند الأتراك والأمراء ، وكان عارفاً باللغة التركية ، وفيه جملة محاسن ، وكان بقية السلف وعمدة الخلف (٢) " .

وتوفي عيد الباسط سنة ١٥١٤ م ، بعد مرضه بالسل مرضاً ألزمه داره أكثر من سنة ؛ ويلاحظ أن وفاته حدثت والمائة المباشرة للهجرة كرت من أعوامها عشريناً ، أي أنه كان من رجال القرن العاشر بقدر ما هو من أهل القرن التاسع ، ومثله وأكثَر منه في هذه الحضرة حسن بن الطولوني ، وغيره من مؤرخي تلك السنين من تاريخ المماليك .

وُلد حسن بن حسين الطولوني سنة ١٤٣٢ م من أسرة يرجع أصلها إلى زمن الدولة الأيوبية ترجيحاً ، واشتغل كثير من أبناء تلك الأسرة بالهندسة والمعمار ، فكان منهم غالباً " معلم

(١) السخاوي : الغزوة اللامع ، ج ٤ ، ص ٢٧ .

(٢) ابن إلياس . بدائع الزهور — طبعة استانبول — ج ٤

المعلمين^(١) ، وهو كبير المهندسين في مصطلح الدولتين الأيوبية والملوكية بمصر ، وعليه المعول في العمار السطانية . واستقام الحظ المادى تماماً لتلك الأسرة أواخر القرن الرابع عشر الميلادى ، حين تزوج السلطان برقوق من أخت معلم المعلمين أحمد ابن الطولونى ، ثم من ابنته بعد طلاق عمتها . وأحمد هذا جد حسن بن الطولونى ، فلما جعله السلطان برقوق من أمراء الممالك برتبة أمير عشرة ، تزياً بـ " الأثر الك " وصار بذلك إنساناً ناجحاً ، وظل على إمارته ووظيفته حتى وفاته سنة ١٣٩٨ م ، وهى السنة التى مات فيها برقوق .

نشأ حسن بن الطولونى على مهنة آباءه ، ودرج فى عزهم وجاههم^(٢) ، مع ميل إلى الفقه والتاريخ والأدب والفناء والفروسية ، وهو ممن عدّهم السخاوى من تلاميذه فى التاريخ ، ويظهر أنه اشتمل بوظيفة معمارية صغيرة فى أول أمره . ثم وقعت الفتنة التى أدت إلى اعتلاء السلطان إبنال عرش الدولة الملوكية سنة ١٤٥٣ م ، وعمل فيها حسن بن الطولونى بأن أشرف

(١) وردت هذه الوظيفة باسم معلم المعمار فى أبى المحاسن (النجوم الزاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، ج ٧ ، ص ٤٢٧) ، وباسم معلم السلطان كذلك فى نفس المرجع (ج ٧ ، ص ٧٠٤) .

(٢) ليس فى المراجع التى اعتمد عليها كاتب هذه السطور ما يدل على شيء ألبتة يحدد حين أبى حسن بن الطولونى صاحب الترجمة هنا ، وربما كان كذلك من رجال المعمار .

على حصار قلعة الجبل حتى سلمت ، فجازاه إينال بأن عيَّنه على
وظيفة معلم المعلمين وإمارة المحمل . وشغل المعلم حسن الوظيفة الأولى
من هاتين الوظيفتين سبعة عشر عاماً ، تخللتها عهود السلاطين
إينال وابنه أحمد وخشقدم وبلباي وعمر بقا وقايتباي حتى سنة
١٤٦٩ م ، فمزل عنها سنة ذلك لسبب لم تذكره المراجع . ثم أعاده
السلطان قايتباي إلى تلك الوظيفة بسفارة الأمير يشبك بن مهدي
الدوادار ، فقام على عمائر السلطان خير قيام ، ومنها جامع الروضة
المعروف بالمقسي على شاطئ النيل ، وهو الجامع الذي تم بفاؤه سنة
١٤٩٠ م ، وأفتى بسببه السيوطي نكابة في قايتباي بأن الإجماع
منعقد على منع البناء على شطوط الأنهار الجارية .

وظل ابن الطولوني متمتعاً برضى السلطان قايتباي ، وحظي
عنده حتى أصبح وسيلة الناس لديه ، وسكن الروضة حيث الجامع
السلطاني ، وأقام به الوقفات الحافلة ليلة الرابع عشر من كل شهر ،
وأحضر لذلك قراء القاهرة ومؤذنها ووظاؤها ، ليشبع بهم حبه في
أنغام القراءة والأذان والوعظ . وحج ابن الطولوني سنة ١٤٩٢ م
موسمياً ، ورافقه السخاوي في ركب ذلك العام ، فرأى من خير
معلم المعلمين وإحسانه وحسن هيئته ما لم يجد له نظيراً بين حاج
تلك السنة . ثم توفي السلطان قايتباي سنة ١٤٩٥ م ، فظل ابن
الطولوني على وظيفته ، بل ولآه السلطان محمد بن قايتباي نيابة

القلعة كذلك ، فوجده خادماً مخلصاً لقيامه بتحصين القلعة
تخصيصاً عظيماً أثناء فتنة الأمير قانصوه ختمائة .

ولابن الطولوني في التاريخ كتاب النزه السنية في ذكر
الخلفاء والملوك المصرية ، وهو مختصر يبدأ بتاريخ ظهور الإسلام ،
وينتهى بحوادث السلطان طومان باى آخر سلاطين المماليك بمصر ،
والراجح أن له كتاباً ثانياً في التاريخ على صورة المذكرات أو
اليوميّات ، غير أنه لا يوجد ما يدلّ عليه حتى العصر الحاضر
سوى قول ابن إياس في ترجمة ابن الطولوني بأنه " أنشأ تاريخاً
لضبط الوقائع " (١) ، وأكبر الظن أنه مدفون في مجموعة من
المجموعات الخطية التي تملأ مكتبات العالم ؛ ولابن الطولوني عدا
ذلك شرح مقدمة أبى الليث والأجرومية .

وعاش ابن الطولوني حتى سنة ١٥١٧ م ، أى أنه أدرك
الفتح العثماني لمصر والشام ؛ غير أنه عمى قبل ذلك بعدة طويلة ،
وعزل عن وظيفته المهارية ، واستقرّ فيها بعده ابنه شهاب الدين
أحمد : ثم ذهب أحمد هذا مع فئات المعلمين (المهندسين)
والصناع الذين حملهم السلطان سليم الأول العثماني من القاهرة إلى
إسطنبول ، ليقوموا له هناك بمثل ما رآه بماصحة المماليك من
المباني والمهار ، ثم رجع مع الراجعين من المصريين حينئذ إلى القاهرة
بإذن السلطان العثماني .

(١) ابن إياس : بدائع الزهور — طبعة بولاق — ج ٣ ، ص ١٠٧ .

ولابن إياس ثبت يستغرق أربع صفحات كاملة من تاريخه الكبير ، فيه أسماء أولئك المعلمين والمهندسين الذين ذهبوا إلى استنبول ثم رجعوا عنها إلى القاهرة بعد قليل ، وفيه أسماء غيرهم من الشخصيات الكبرى والصغرى ، وأولهم الخليفة المتوكل العباسي . ولدت ابن إياس ذكر من ضمن أولئك وهؤلاء أحمد ابن زنبيل المحلى الرمال ، رابع معاصريه من المؤرخين في مصر ، أو أورد بشأنه خبراً واحداً ، فإن المراجع المعروفة لا تكاد تنفي بشئ عنه سوى أنه كان موظفاً بديوان الجيش العثماني في وقت ما ، وأنه رافق جيش السلطان سليم الأول أثناء الحروب التي أنهت دولة المماليك بمصر والشام ، وأنه حضر جفازة طومان باي آخر سلاطين المماليك لتوزيع الصدقات على روحه بأمر السلطان العثماني . ولابن زنبيل كتاب تاريخ أخذ مصر من الجراكسة ، وهو سجل وافٍ لحوادث الفتح العثماني ، من يوم خروج السلطان قانصوه الغوري من القاهرة لملاقاة العثمانيين بشمال الشام ، إلى يوم رجوع السلطان سليم الأول مظفراً إلى إسطنبول . ولهذا الكتاب مكانة كبيرة منذ تأليفه ، ومنه كُتبت نسخة — أو نسخ — شعبية ما برحت تسلية المقاهي بالقاهرة منذ القرن السادس عشر الميلادي ؛ وترجمه السهيلى إلى التركية في القرن

(١) ابن إياس : بدائع الزهور — طبعة لإسطنبول — ج ٥ ،

السابع عشر، ضمن كتاب له اسمه الدررة اليتيمة في تاريخ مصر القديمة؛ واعتمد عليه مارسيل (Marcel)، أحد المستشرقين بالحلقة الفرنسية على مصر، في كتابه الذي ألفه في تاريخ مصر الإسلامية، ولا يزال مرجعاً من الدرجة الأولى حتى الآن. وتوجد من هذا الكتاب نسخ عديدة متفاوتة الحجم والقيمة بمختلف المكتبات العامة والخاصة، ومنها نسخة شعبية مطبوعة طبعاً وديكاً، وربما عني به الممنون بالتاريخ المصري قريباً، لتكون منه نسخة منشورة نشر أنهاياً مقارناً، بطمأن إليها المؤرخون اطمئناناً عليها.

ولابن زنبيل عدا ذلك من المؤلفات كتاب في التاريخ باللغة التركية، وهو يشتمل على حكام مصر العثمانيين في زمنه، وكتاب تحفة الملوك والرفائب لما في البر والبحر من المعجائب والخرائب، وهو في الجغرافية، وكتاب المقالات في حل المشكلات، وهو في علم الخط والرمل والتنجيم، وكلها مخطوط مهملة إجمالاً تاماً. والمعروف كذلك من أخبار ابن زنبيل أنه بقي حياً يرزق من وظيفة بديوان الجيش العثماني سنة ١٥٤٤ م، وأنه أقام وقت ذاك ببلدة أبي قير الحالية قرب الإسكندرية، وأنه توفي بعد سنة ١٥٥٢ م.

وإذا كان ما لدينا من أخبار ابن زنبيل الرمال لا يكفي لكتابة ترجمة متصلة الحقائق شافية، فإن الرجوع تصني بأخبار محمد بن طولون الدمشقي آخر معاصري ابن إياس من المؤرخين،

فضلاً عن ترجمة ذاتية^(١) كتبها هذا المؤرخ لنفسه تقليداً
للسابقين من المعاصرين والمتقدمين كالسيوطي ، وهي في أربع
وخمسين صفحة من القطع الصغير ، لا يخرج الفارسي منها بشيء
كثير ، خلاصته أن ابن طولون وُلِدَ سنة ١٤٧٥ م بصالحية
دمشق ، وأن أمه أزدان الرومية توفيت وهو في سن الطفولة
الأولى . وتعلم ابن طولون على شيوخ دمشق ، ومنهم عمه القاضي
جمال الدين يوسف الحنفي مفتي دار العدل بها ، والمؤرخ الدمشقي
محبي الدين النعماني ، والمحدث جمال الدين ابن المبرد ؛ ثم
رحل ابن طولون في طلب العلم إلى مكة سنة ١٥١٤ م هـ ، فسمع
بها على الحافظ عز الدين بن فهد ، وأجازة السيوطي إجازة بالسكّابة
من القاهرة .

وقرر ابن طولون في ترجمته الذاتية أن عدّة شيوخه بلغت
خمسمائة ، وأن العلوم التي اشتغل بتحصيلها تزيد على اثنين وسبعين
علماً ، ومنها الحديث والكلام والأصول ، والفقه والصرف
والمنطق ، والطب والهيئة والهندسة ، والمغاني والبديع والحساب ،
والفرائض والعروض والفلك ، والميقات واللغة والتاريخ ، والفقه
والتصوف والتفسير . وأجازة مشايخه في بعض هذه العلوم

(١) اسم هذه الترجمة الذاتية الفلك المشحون في أحوال محمد بن
طولون ، وهي مطبوعة بدار مكتبة القدس والبدير بدمشق ، سنة
١٣٤٨ هـ .

الإجازة والإجازاتين والثلاث ؛ ولذا جاء ابن الطولوني كالسيوطي
تماماً من حيث مشايخه وعلومه وبراهينه العلمية وسماعاته ، بل أصاب
المرحوم تيمور باشا حينما وصفه بأنه سيوطي الشام .

والواقع أن الشبه بين الرجلين يتعدى إلى مؤلفاتهما وأنواعها
وقيمتها كذلك ، بل تزيد مؤلفات ابن طولون السمعة كثيراً عن
مؤلفات صاحبه المصري ، وهي واردة في ترجمته الذاتية — وفي
غيرها من المراجع — في عدة صفحات بترتيب أبجدي أكثرتها .
ومن هذه في التاريخ كتاب غير معروف العنوان على التحقيق ،
ولا يوجد منه حتى الآن سوى قطعة صغيرة طبعت^(١) حديثاً ،
ولعله كتاب عجب الدهر في تذييل من ملك مصر ، أو كتاب زهرة
الناظر في معرفة الأواخر ، أو كتاب مفاتيح الخلال في حوادث
الزمان . وكيفما كان الأمر ، فهذه القطعة من ذلك الكتاب المجهول
هي التي أهدت ابن طولون لأن يكون في عداد المؤرخين الذين يرجع
إليهم في كتابة التاريخ المصري في العصور الوسطى ، لانفرادها
بمقائيق تاريخية هامة في الفتح العثماني وأسبابه وحوادثه ،
واشتمالها على ما رآه مؤلفها من حوادث ذلك الفتح بدمشق ، مما
لم يره ابن إلياس وهو بالقاهرة .

(١) عثر المستشرق ريتشارد هارتمان (Richard Hartmann) على
هذه القطعة بمكتبة جامعة توبنجن (Tübingen) ، ونشرها سنة ١٩٢٦ تحت
اسم (Das Tübinger Fragment der Chronik des Ibn Tūlūn).

ولابن طولون في التاريخ كذلك كتاب العقود الزاوية في الدولة الطولونية ، وكتاب حور العميون في تاريخ ابن طولون ، وهو تلخيص مع زيادات لسيرة أحمد بن طولون للبلوي^(١) المؤرخ المتوفى حول منتصف القرن الحادي عشر الميلادي . وعثر ابن طولون على تلك السيرة في دكان ورقاق ، فاشتراها وأهداها لخزانة المدرسة العميرية بصالحية دمشق ، وكتب عليها بخطه أنه ابتاعها بقسمة قروش ، وكل ذلك تقدير منه لمؤسس الدولة الطولونية الذي اعتبره جده الأعلى .

ولابن طولون كذلك في التاريخ كتاب الثمر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام ، وكتاب إعلام الوري عن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الكبرى ، كما أن له في التراجم كتاب سلك الجلسان فيما وقع لي من تراجم ملوك بني عثمان ، وكتاب النطق المنبي في ترجمة الشيخ المحبوي ابن العربي . وكتاب الاختيارات المرضية في أخبار التقي ابن تيمية ، وكتاب التمتع بالأقران بين تراجم الشيوخ والخلان ، وهو ذيل على تراجم البرهان البقاعي المعروف باسم عنوان الزمان ، وغير ذلك كثير في مختلف العلوم والمواضيع والصناعات .

(١) نصر الأستاذ محمد كرد علي بك هذه السيرة الطولونية حديثاً من نسخة وحيدة وجدها بالمكتبة الظاهرية بدمشق ، وسدّ بنقصه وتحقيقه هذا الكتاب ثمرة واسعة من ثمرات التاريخ المصري أوائل المصور الوسطى .

واشتغل ابن طولون فوق ذلك بوظائف عديدة من تدريس
وإقراء وإمامة وخطابة ، ومشاركة وفقاهة ومشیخة ، بخلاف
معاهد دمشق وجوامعها وزواياها وخوانقها ، فكانت أوقاته
معمورة تماما ؛ وظل على كثير من تلك الوظائف برغم ما جرى
على دمشق من تغير الدولة بعد الفتح العثماني ، وتوفي سنة ١٥٤٥ م ،
ولم يعقب أحدا .

الفصل الرابع

خاتمة ونقد مقارن

المقصود في السطور التالية تعقيب نقدي على ما جاء من أخبار المؤرخين والكتاب الذين تقدمت تراجمهم في الفصول السابقة ، على أن يتبصر تحليل المؤلفاتهم تحليلاً مقارناً ، من حيث إنشائها نتاج شامل لمرحلة من التاريخ المصري مدتها قرن ونصف من السنين .
ومما يوجب الالتفات أولاً في حياة أولئك الرجال أنهم كانوا في الغالب ممن شغلوا - أو طلبوا - وظائف كبيرة في الدولة الملوكية ، وأنهم جمعوا إلى ذلك بين فن الكتابة في التاريخ والدراسات والتأليف المتنوعة ، فالقريزي مثلاً تولى التوقيع بديوان الإنشاء ، ثم وظيفة محتسب القاهرة والوجه البحري في وقت معين ، وذلك فضلاً عن تعيينه سنوات أخرى مدرسا للحديث (أي أسناداً ذا كرمي في المصطلح الجاسي الآن) ، بمدارس القاهرة ودمشق ، وقيامه ناظراً على أوقاف واسعة بماصة الشام ؛ ومع هذا فشهرته مبنية على ما كتبه في التاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، والخطط أيضاً . وكذلك كان ابن حجر قاضياً للقضاة الشافعية بالقاهرة ، كما كان العيني قاضياً للقضاة الحنفية بها ، مع

تولى ثانیهما الحسبة ونظر الأحباس جميعاً فی وقت واحد ؛ ونبغ
 کل منهما فی وظائف تدريس الحديث بالقاهرة ، وخلف فی الحديث
 وعلومه مؤلفات ضخمة ، وهذا عدا مؤلفاتهما التاريخية الکبری .
 ويقال مثل ذلك فی ابن عرب شاه ، إذ اشغل بديوان الإنشاء بمعظم
 الممالک الإسلامية فی الشرق الأدنى ، بل صار كاتب السر لدى السلطان
 محمد الأول العثماني ، وغدت بيده مراسلات الدولة العثمانية وشؤونها
 مع جيرانها من ترك وعرب وفرنس ومغول علی الأقل ، لمرفته لثبات
 تلك البلاد معرفة تامة . وتقلد خليل بن شاهين — وهو عدیل
 السلطان برسباي — وظائف عظيمة فی الدولة المملوکیة بمصر والشام
 وأطراف آسيا الصغرى ، فتعين ناظراً ثم حاجباً بالإسکندرية ،
 وتولى دار الضرب فالوزارة بالقاهرة ، ثم تقلب فی عدة نیابات
 بحدن الشام ومطیة بأطراف الدولة المملوکیة ، وذلك بالإضافة إلى
 مؤلفاته فی الفقه والتفسير والتعبير والتاريخ والإنشاء . أما الخالدي ،
 مؤلف کتاب المقصد الرفیع المنشأ الهادی لصناعة الإنشاء ،
 فإنه قضی عدة سنوات موظفاً مسئولاً بديوان الإنشاء بالقاهرة ، كما
 يدل علیہ کتابه . ومع أن أبا المحاسن لم يباشر وظيفة دائمة
 يوماً من أيام حياته الطويلة ، فالمعروف أنه کان من فرقة أولاد
 الناص ، التي جرت المادة فی الدولة المملوکیة أن يُعطى للواحد
 منهم إقطاع متناسب مع رتبة أمير خمسة فی النظام الحربي
 المملوکی رعاية لسلفه ، وأن تسند إليه وظيفة مدنية زمن السلم ،

على أن يقوم بواجب الأمير وقت الحرب ؛ ثم تولى أبو المحاسن
وظيفة باش الحمل المصرى سنة ١٤٤٥ م ، ومؤلفاته السكبيرة
فى التاريخ والتراجم معروفة . وصار ابن الصير فى خطيباً للجامع
الظاهر برقوق ، ونائباً للحكم (قاضياً) عند قاضى القضاة الحنفية ،
كما اشتغل بالتجارة والتأليف فى التاريخ والسيرة النبوية . أما
السخاوى ، فكأنما قدر له أن يظلّ طول حياته يسمى إلى وظيفة
من وظائف تدريس الحديث بالقاهرة ، ويبوء من سميه المتّصل
ببقائه طالباً مزمناً حتى آخر أيامه ، فعانى التأليف فى الحديث والتاريخ
والتراجم ، وكتب لنفسه ترجمة ذاتية فى أكثر من ثلاثين صفحة
من كتابه الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع ، وربما كان
عدم توفيقه لوظيفة سبباً من أسباب المرارة الطاغية على كثير من
تراجمه فى معجمه السكبيرة . وأما ابن إياس فليس من المعروف ما عدا
عليه من وظيفة سوى أنه ظلّ كذلك فى فرقة أولاد الناس ،
وبينده لإقطاع له عبدة وافرّة ، كأبى المحاسن من قبل وعبد الباسط
وابن الطولونى من بعد ، وما عدا أن "نظّمه يدلّ على أنه عاش حول
البلاط السلطانى ، ولعله تمثّل فيه على وظيفة مؤقّتة لم يشأ أن
يذكرها فى كتابه لفضائلها فى نظره . وأما معاصره السيوطى فإنه عاش
جرّاعاً للوظائف ، من تداريس ومشىخات حبساً فى الصيت والمال ؛
ويظهر أن ابن طولون الدمشقى شابه السيوطى فى هذه الناحية
كذلك ، فضلاً عن مشابهته له فى الاعتداد بالنفس وادعاء التبجّر

في جميع العلوم وكثرة التآليف . وأما ابن الطولوني ، فإنه تولى وظيفة " معلم الملوك " في البلاط المملوكي مدة طويلة ، كما كان ابن زنبيل من موظفي ديوان الجيش العثماني ، وذلك بالإضافة إلى اشتغاله بالرمل والنجوم والأوقاف ، وله في ذلك كتاب تقدمت الإشارة إليه ، وهذا عدا ما ألف في الجغرافية والتاريخ .

وظاهرة ثانية مشتركة بين أولئك المؤرخين والكتاب في القرن الخامس عشر الميلادي ، وهي ممارستهم جميعاً نظم الشعر في مناسبات شتى ؛ ويظهر أن هذا الفن كان من مستلزمات المتنورين في ذلك العصر . على أن السيوطي بزّ المعاصرين والمتقدمين جميعاً بممارسة الأدب النثري كذلك ، إذ كتب سلسلة من المقامات في أثر مسجوع . والواقع أنه لم يشذّ عن هذه القاعدة — وهي ممارسة النظم — أحد من أولئك المؤرخين ، غير أن المعروف من أشعار بعضهم لا يكاد يعدو أصابع اليد مرة أو مرتين عدداً ، وربما أبطأت كتبهم المخطوطة كثيراً مما لهم في هذا الباب الذي وجبت العناية به ، لإبراز تاريخ مفهوم للأدب العربي المصري في العصور الوسطى ، وللإستعانة به في معرفة ما غمض من أخلاق الكتاب وعلاقاتهم الشخصية بعضهم ببعض .

ذلك أنه يبدو من إشارات معظم أولئك المؤرخين إلى ما بقيهم أو معاصريهم أنهم كانوا شديدي الخصومة ، والتحاسد والمداخنة — وتلك هي الظاهرة الثالثة السائدة بينهم — ، يستشفها القارئ

اسكتبهم في غير عناء ؟ وسببها في الغالب ما تولد بينهم من منافسة
وتعصب لمشايخهم ، سواء أ كانوا مؤرخين أم محدثين أو موظفين
في الدولة المملوكية . من ذلك أن المقرئ لم يغفر للعيني أنه خلفه
في وظيفة الحسبة ، وهي الوظيفة الوحيدة التي يظهر أن
المقرئ استراح لها من دون الوظائف التي تولّاها ، ولذا لم يألُ
فرصة دون أن يتناول العيني بلاذع الإشارة في كتبه . ولم يتحرّج
العيني — بإزاء ذلك على الأقل — أن يصف المقرئ في عبارة ماثلة
ساخرة ، بأنه كان رجلاً " مشغولاً بكتابة التواريخ وبضرب الرمل ،
تولى الحسبة بالقاهرة . . . ثم عزل ^(١) عسّطره " . ولم يخلُ من
ذلك التعاسد والشعور بالمنافسة أمثال ابن حجر المعروف بالاتزان
والوقار ، فإنه كرهه العيني كرهاً تاماً ، ولم يستطع أن يسكت
عن سرقاته فيما ألف في الحديث والتاريخ ، فرماه بما سمح به
قلبه من التجريح . وكذلك لم يفت أبي الحاسن أن يتعقب أخطاء
أستاذه المقرئ كلما سنحت له الفرصة ، وذلك مع العلم بأن
كثيراً مما جاء في كتب أبي الحاسن منقول بمخذافيه من مؤلفات
المقرئ . أما السخاوي فلم يعجبه أحد من سابقيه أو معاصريه ،
ما خلا أستاذه ابن حجر ، ولم يشأ أن يترك مناسبة — أو غير
مناسبة — إلا اغتنمها للخط من كل من المقرئ والعيني
وغيرهما . ومن ذلك قوله في أبي الحاسن : " وبالجملة فقد كانت

(١) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٢ ، ص ٢٤ ، نقلا عن العيني .

[أبو المحاسن] حسن المشرة ، تام العقل — إلا في دعواه فهو حتى (١) ، ورميه ابن الصيرفي بأنه " كان يكتب التاريخ مجازفة ، لا عن قائل ، ولا عن (٢) راو " ، ووصفه السيوطي بأنه " ترتب قبل أن يتحصرم لم أزل أعرفه بالهوس وعز يد الترفع حتى على أمه (٣) "

ولم يسلم السخاوي طبعاً من معاصريه ، إذ تَمَسَّته السيوطي بأنه " المؤرخ الجارح أكتب على التاريخ فأفتى فيه عمره ، وأغرق فيه عمله ، وعلق فيه أعراض الناس ، وملا به مساوي الخلق . . . وزعم أنه قام في ذلك بواجب ، وهو الجرح والتعديل (٤) " ، وأيده في ذلك الحكم ابنُ إياس في عبارة مترنة معتدلة في التعريف بالسخاوي . والواقع أن ابن إياس كان أقبل مؤرخي القرن الخامس عشر الميلادي في مصر حسداً وغيره من أبناء صناعته ، وهو كذلك أعد لهم لفظاً عند الحكم على كثير من الناس ، وربما كان ابن إياس ذلك كله لأنه لم يراحم أحداً من معاصريه من المؤرخين في وظائفهم وأطاعهم ، وأنه عاش حفاظاً للحيثات . مثال ذلك قصده في النيل من السيوطي بخير أو شر ، لأنه على الرغم من عدم احترامه له ، لم ينس له حتى تلميحه إياه ، فلم يتعرض له بأكثر من النقد الخفيف .

(١) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٠ ، ص ٣٠٥ .

(٢) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٥ ، ص ٢١٨ .

(٣) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٤ ، ص ٦٧ .

(٤) السيوطي : نظم القيان — طبعة حتى — ص ١٥٢ .

وتم ظاهرة رابعة ، رآها القارى شائعة بين مؤلفات أولئك
 المؤرخين كذلك ، إنهم يقولون فى مقدمات كتبهم إنما يقولون
 لأنفسهم خاصة ، أو زولا على رغبة صديق من الأصدقاء ،
 لا يريدون من ذلك جزاء أو نفعا أو صيتا أو حبا فى استجلاب
 الرضا عند سلطان أو أمير . والغالب أن هذا التصنع كان أيضا من
 لزمومات العلماء فى ذلك العصر وغيره من العصور ، ولا سيما إذا
 كان المؤلف ممن لم يسمدهم الحظ فى البلاط السلطاني ، أو عند أمير
 من الأمراء . والدليل على ذلك أن الذين نالوا منهم شيئا من
 التشجيع والرضا عند بعض أولى الأمر فى الدولة لم يكتبوا أمثال
 تلك العبارة المصطنعة فى افتتاحيات مؤلفاتهم ، بل ذكروا اسم
 السلطان أو الأمير صاحب الفضل عليهم . والأمثلة على النوعين
 كثيرة : فالقرزى مثلا يفتتح كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك
 ببيتين من الشعر مخصصهما أنه جمع ذلك الكتاب لنفسه^(١) ،
 وأبو المحاسن يقول فى أول كتاب النجوم الزاهرة فى ملوك مصر
 والقاهرة ما نصه : " ولم أقل كقالة الغير إنى مستدعى إلى ذلك
 من أمير أو سلطان ، ولا مطلب به من الأصدقاء والإخوان ، بل
 الفته لنفسى ، وأبقته بياضات غراسى ، ليسكون لى فى الوحدة

(١) القزى : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك — طبعة لجنة
 التأليف والترجمة والنشر — ج ١ ، ص ٣ .

جليسا ، وبين الجلساء مسامراً وأنيساً^(١) . غير أن أبا المحاسن ناقض نفسه في موضع آخر من كتابه هذا حين قال إنه ألفه من أجل صديقه السلطان المرجو محمد بن جقمق ، ليجعل منه ما جعل العيني للسلطان برسبای من كتاب عقد الجمان بأخبار الزمان ، مع العلم بأن ابن جقمق لم يطلب إليه هذا الطلب . أما السخاوى ، فيذكر صراحة بأنه ألف كتاب التبر المسبوك في ذيل السلوك إجابة لطلب الأمير الكبير يشبك بن مهدى الدوادار ، وفي ذلك يقول : " ثم أخذت في ضبط ما تيسر لي ، وذلك حين أمرني من إجابته عند العطاء كالواجب ، وإشارته بمجرد الإعلاء للرقاية كالحاجب ، وجنابه يُقبض من حلّ مجانبه ، وبابه محطّ رحال الساعي في مآربه ، فالعلماء بمجلسه حافون ، والفهماء في محل أنسه عاكفون^(٢) . . . " ، وأمثال هذه العبارات كثير في كتب غير السخاوى من المؤرخين .

وهناك ظاهرة خامسة بين أولئك المؤرخين ، وهي الأخيرة والأكثر أهمية مما سبق في هذا المقام من الظواهر المشتركة بينهم ، لملاقفها بالتاريخ ومقارفته في مصر الإسلامية في العصور الوسطى ، وتلك هي أن العالمية العظمى من كتب مؤرخي القرن

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة

— طبعة دار الكتب المصرية — ، ج ١ ، ص ٢ .

(٢) السخاوى : التبر المسبوك في ذيل السلوك ، ص ٤ .

الخامس عشر الميلادي في مصر ليست سوى ذبول وتنكلات
لكتب سبقها زمنياً . على أن المؤرخين في ذلك القرن ليسوا
في الواقع سوى مقلدين لسلفهم في التأليف التاريخي بالشرق
الإسلامي كله ، وأكبر الظن أن المؤرخين في العربية على
الإطلاق^(١) أرادوا بذلك الطريقة أن يستمدوا لأنفسهم من شهرة
السابقين بربط مؤلفاتهم إلى كتب مسلم الناس بأهميتها قبلاً ، أو
أن يفرضوا على الناس أنهم الوارثون لها في الشهرة والزعامة من
إجلال واحترام ، أو أن يدعوا أنهم استطاعوا تهذيب أعماط السالفين
في الكتابة والترتيب . فالمقرئ (وهو الوحيد الذي لا ينطبق
عليه شيء من هذا التعليل كله) ذبل على نفسه في تأليفه كتاب
السلوك ، إذ كتبه ليكمل به سلسلة مؤلفاته الخالدة في تاريخ
مصر الإسلامية في العصور الوسطى منذ الفتح العربي إلى زمنه^(٢) .
أما أبو المحاسن فإنه كتب حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور

(١) يوجد كثير من الأدلة على إطلاق هذه الظاهرة على جميع
المؤرخين السابقين في العربية قبل القرن الخامس عشر الميلادي ، ومنها أن
تاريخ أبي الفدا ذبل على كتاب مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن
واصل ، وأن تاريخ البرزالي ذبل على كتاب الروضتين في أخبار الدولتين
لأبي شامة ، وأن كتاب الإعلام بتاريخ أهل الإسلام لابن قاضي شهاب ذبل
على كتاب العبر في خبر من عبر للذهبي ، وغير ذلك كثير فبا يبدو .

(٢) المقرئ : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك — طبعة لجنة
التأليف والترجمة والنشر — ج ١ ، ص ٩ .

استمراراً لكتاب السلوك ، وإحياء لسنة صاحبه وأستاذه مع التحسين فيها ، ليكون له من بعده زعامة المؤرخين بحق في القرن الخامس عشر الميلادي ^(١) . ولهذا السبب نفسه كتب السخاوي كتاب القبر المسبوك في ذيل السلوك ، وهو تكملة ثانية لكتاب المقرئ كما يوضح من العنوان ، كما أنه ألف كتاب وجيز الكلام في ذيل تاريخ دول الإسلام تنمى لكتاب الذهبي المؤرخ ، وكتاب الذيل المتناهي تكملة لكتاب معروف لابن حجر في قصاة مصر ، وكتاب الذيل على طبقات القراء تكملة لكتاب ابن الجوزي . ومن أمثلة ذلك أيضاً كتاب المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي لأبي المحاسن ، فهو ذيل على المؤلف المعروف خليل بن أبيك الصفدي ، وكتاب إنباء الغمر في أبناء العمر لابن حجر ، وهو في الواقع ذيل لكتاب البداية والنهاية لابن كثير ، وكتاب تاريخ العمر للسيوطي ، وهو تكملة للكتاب المتقدم لابن حجر .

غير أنه توجد عدا هذه الظواهر المشتركة بين أولئك المؤرخين ظاهرة واحدة غير مشتركة بينهم ، أو — بعبارة أخرى — ظاهرة غير متساوية الانطباق على كل منهم ، وتلك هي اتجاه بعضهم ، كالمقرئ والسيوطي ، إلى تأليف الكتب الصغيرة في موضوعات

(١) أبو المحاسن : حوادث الدهور في مدى الأيام والسنين — طبعة كاليفورنيا — ، ج ١ ، صفحة ب .

معينة ، فضلا عن جانب انشغالهم بالكتب الكبيرة والحوليات ،
 واتجاه بعضهم الآخر ، كأبي المحاسن والسخاوى ، إلى اختصار
 المؤلفات المنسوبة لأسلافهم أو لأنفسهم . على أن إنتاج البعض
 الأول في ذلك الصنف من التأليف هو القمين بالانتباه هنا ،
 فمؤلفات المقرئى الصغيرة مثلا تتصف بصفات خارقة ، إذ بينها
 تموج كتبه الكبيرة بأخبار الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء ،
 وتؤرد بحوادث العزل والولاية ، وتنغص بالتراجم والوفيات
 والحروب والتجارب ، حتى تكاد شخصية المؤلف لا توجد أو ترى
 إلا بمنظار ، إذا بهذه الكتب الصغيرة تاق كثيرا من الضوء على
 شيء من هوية المؤلف ، وتوضح الطريق لفهم الحال الفكرية في
 عصره . ذلك أن المقرئى يعرض في أمثال هذه الكتب لمسائل
 قل أن يتعرض لها في حولياته ، ويتحلل من قيود تسجيل
 الأخبار ، ويجرؤ على الإدلاء بأرائه الخاصة ، بل يحاول أحيانا أن
 يعلل الحسودات تعليلا عقليا ، ويناقض بعض العيوب نقاشا
 حرا (١) . أما مؤلفات السيموطى الصغيرة فقد تقدمت الإشارة إلى
 طابعها الصحفي القائم على الدعاية لنفس لوامة للعبر في كثير من
 الأنانة والتعديل الزائف وحب العصيت ، على أن غشاة تلك

(١) انظر المقرئى : لغاة الأمة بكشف الغمة — نصر زيادة
 والشيال — صفحة ٥ ، وكذلك المقرئى : عمل عبر النحل — نصر
 الشيال ، صفحة ٥ — ٦ .

المؤلفات لا تستطيع إلا أن تنم عن شخصية السيوطي ، وهي في الواقع تلقى كثيراً من الضوء على شيء من هويته ودخيلته^(١).

أما التعريف بمنهج الكتابة والتأليف عند مؤرخي مصر في القرن الخامس عشر الميلادي ، وتقدير مؤلفاتهم تقديراً مقارناً من حيث أنها منابع ومراجع أصلية للتاريخ المصري في العصور الوسطى ، فمن الضروري قبل الكلام في هذا أو ذاك أن نذكر أولاً أن لفظ " تاريخ " في ذلك العصر ، وما سبقه أو لحقه من المصور كذلك إلى نهاية المصور الوسطى — وسواء في ذلك مصر وبلاد الشرق والغرب جميعاً — وسع غير التاريخ من العلوم والفنون والمقاصد ، كالحوليات والمدونات اليومية ، والوقفيات والتراجم ومساجم الكتب . ويرجع هذا التجوّز الواسع في مدلول لفظ " تاريخ " ومشموله في اللغة العربية — واللغات الأوروبية كذلك في تلك الأزمنة — إلى عوامل لا محل هنا لمناقشتها أو استقصائها^(٢) ، إذ المراد شرح طريقة التأليف والترتيب عند مؤرخي القرن الخامس عشر الميلادي وحده في مصر شرحاً استقرائياً . ذلك أن كلاً منهم كان يفتتح كتابه ، بعد البسملة والحمدلة والصلوات الطيبات ،

(١) انظر ما سبق ، ص ٥٨ — ٦٣ .

(٢) اقرأ في هذا الموضوع ما كتبه الأستاذ عبد الحميد العبادي بك في الفصل الثالث من كتاب علم التاريخ ، ص ٥١ — ٦٩ . (مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٧ م) .

بذكر بدء الخليقة ، ويُعقبه بقصص الأنبياء والمرسلين ، ثم يأخذ في شرح فضائل مصر وما امتازت به من الصفات على سائر البلدان ، ويستشهد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية تأييداً لذلك ، وينتقل من بعد هذا إلى تاريخ مصر منذ الفتح الإسلامي ، فيكون مختصراً أولاً ، ثم أقل اختصاراً ، وهكذا إلى أن يصير الكتاب سجلاً يومياً لما يقع بعصر ولاياتها وجاراتها من الحوادث الكبرى والصغرى في عصر المؤلف . وقد يتخلل هذا السجل شيء عن أسماء المحاصيل وأحوالها ، أو فيض النيل ومناسيبه ، أو هبوب ريح سوداء ترفع الأبقار في الهواء ، أو تفصيلات جدل أدبي ، أو أدوار محنة قهية ، أو تعديل في نظم الحكم والجيش ، أو وصف لمسجد عمره سلطان أو أمير ، أو نص رسالة أرسلها ملك من ملوك البلاد المجاورة وجواب السلطان عليها ، وذلك ففضلاً عن الوفيات والتراجم التي تطول أو تقصر بحسب مزاج الكاتب ومقاييسه ، وعلى قدر القيمة السياسية أو الاجتماعية المترجم له .

يتضح من هذا أن مؤرخي ذلك العصر لم يفرقوا بين التاريخ والقصص والأدب والوفيات والتراجم ونظم الحكم ، وأنهم اتبعوا طريقة الاستطراد في التأليف ، فلم يميزوا بين التاريخ والبحث وبين الاقتصاد والاجتماع والتاريخ الدستوري ، مثلاً . وأتبع المقرئ تلك الطريقة الجامعة بمقدار في كتاب السلوك لمعرفة

دول الملوك ، غير أنه رتبته على نظام مخالف لما وجدته شائماً بين مؤلفات من سبقه من المؤرخين في مصر ، كالنويري وابن القرات . وتفصيل ذلك النظام أن المقرري دون حوادث كل عام في فصل مستقل ، تحت عنوان باسم ذلك العام بخط كبير ومداد غير مداد المتن ، وختم الحوادث بذكر الوفيات والترجمة لأصحابها في شيء من الاختصار العامد ، ثم انتقل إلى العام التالي فجعله عنواناً جديداً ، وسجل حوادثه دون أن يؤلف من كتابته قصة متصلة ، ما عدا أنه افتتح السنة أحياناً بذكر الوظائف الكبرى ومن عليها ، وهذا في العادة إذا جاء بدء السنة موافقاً لقيام سلطان جديد ، لما في ذلك طبعاً من تمييز وتبديل بين موظفي البلاط السلطاني . واعتاد المقرري كذلك أن يكتب اسم السلطان الجديد بخط كبير ومداد مخالف ، غير أنه لم يجعل من ذلك وقفة بلخص فيها أو يفلسف ، بل اكتفى بعبارات افتتاحية في أصل السلطان وماضيه ، ثم انتقل إلى ذكر الحوادث والأخبار حسب ترتيبها الزمني على قدر الإمكان .

وسار كل من العيني وابن حجر على هذا النظام في كتبهما التاريخية ، ما عدا أن شنف ابن حجر بالتراجم حمله على أن يفيض فيها بأكثر مما دون في حوادث سنة بأكملها . ولابن حجر فضل في أنه كتب الوفيات على ترتيب أبجدي ، وهذا حذوه في ذلك تلميذاه السخاوي وابن الصيرفي . وابن حجر كذلك أول من ابتدع فكرة الكتاب الشامل لوفيات قرن بتمامه ،

وهو أيضا صاحب فكرة التسمية لتلك الكتب على عنوان القرون ،
والتي يرجع قصب السبق في العناية بتراجم الفاضلات المحدثات
من النساء ، وكتابه الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة دليل
واضح على ذلك . واقتفى السخاوي أثره في هذا كله ، وزاد عليه
بأن جعل للنساء وحدهن جزءا مستقلا من كتاب الضوء اللامع
في أعيان القرن التاسع ؛ وتألفت من بعد ذلك الكتب المعروفة
في وقفيات القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر الهجري .
أما أبو المحاسن فإنه أخذ على أستاذه المقرئ أنه ملأ كتابه
بالحوادث والماجريات ، وقصّر في التراجم والوفيات ، ولذا ألف
هو كتابه حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ، معارضا
لذلك الترتيب ، فأطبب في الحوادث وأوسع في التراجم ، لتكثر
الفائدة من الطرفين ، على قوله ؛ وهذا الكتاب هو الذي
جعله أبو المحاسن ذبلا على كتاب السلوك للمقرئ . بل إن
أبا المحاسن انتهج في تاريخه الكبير ، وهو كتاب النجوم
الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، منهجا مخالفا لطريقة المقرئ
وترتيبه ، إذ جعل كل عهد من عهود الملوك والسلاطين فصلا
قائما بذاته ، وذكر السنين وحوادثها تباعا من غير أن يجعل
لها عناوين مستقلة ، ما عدا أنه أشار إلى إهلالها على أنه حادثة من
الحوادث ، حتى إذا توفى السلطان أتى على أخباره مرة أخرى في
ترجمة متصلة ، وشرح أخلاقه وعوامل نجاحه أو فشله ،

ثم أعقب ذلك كلمة بترتيب سنوات العهد نفسه ترتيباً عددياً ،
وذكر وفيات كل منها في فصل واحد ، وربما أهدى في هذه
أو تلك من الوفيات إضافة ملحوظة لما لصاحبها من مقام ممتاز ،
أو ذكر في أثنائها من الحوادث ما لم يستطع ذكره أو أنسيه في
الجزء الخاص بعهود السلاطين

وأما ابن إياس فاتبع طريقاً نصفه بين ترتيبى المقرئى
وأبى المحاسن ، إذ قسم كتابه بدائع الزهور في وقائع الدهور
إلى عهود مستقلة ، كما فعل أبو المحاسن ، وذكر السنين بمنابرين
واضحة وبخط كبير وممداد مخالف ، كما فعل المقرئى ، ولكنه لم
يجعل للوفيات ترتيباً زمنياً منفصلاً مثل ترتيب أبى المحاسن ، ولم
يكتبها عند أواخر السنين من حوارياته مثل نظام المقرئى ، بل
أورد هاهنا كثير من الإيجاز عند وقوعها حيثما اتفق من شهور السنة ،
وهو في ذلك متبع للطريقة التى سار عليها مؤلف مجهول الاسم ، له
كتاب مخطوط ناقص وبغير عنوان بالمتحف البريطانى بلندن ،
وموضوعه تاريخ دمشق .

وللبرهان على كل ما تقدم من ملاحظات يجب الرجوع إلى
كتب أربلئك المؤرخين نفسها ، أو إلى مقدماتها على الأقل :
فالمقرئى مثلاً بين في تصدير كتاب السلوك أنه ألفه ليكون
تاريخ السلاطين في مصر بعد الفاطميين " من الملوك الأكراد
والأيربية ، والسلاطين الماليك التركى والجركية ، في كتاب

يحصّر أخبارهم الشائنة ، ويستقصي أعلامهم الذائنة ، ويحوى أكثر ما في أيامهم من الحوادث والمآثر ، غير مثنين فيه بالتراجم والوفيات ، لأن أفردت لها تأليفاً بديع المثال ، بعيد المسال ، فألفت هذا الدنوان ، وسلكت فيه التوسط بين الإكثار الممل والاختصار المختل^(١) . وكذلك كتب أبو المحاسن في خطبة كتاب النجوم الزاهرة ، حيث قال إنه رتبته ليكون شاملاً ليهود من وإلى مصر منذ الفتح العربي من الولاة والخلفاء والملوك والسلاطين ، " واحداً بعد واحد ، لا أقدم أحداً منهم على أحد باسم ولا كنية ولا لقب ، ثم أذكر أيضاً في كل ترجمة ما أحدث صاحبها في أيام ولايته من الأمور ، وما جدّده من القواعد والوظائف والولايات في مدى الدهور ، ولا أقصر على ذلك ، بل أستطرد إلى ذكر ما بنى فيها من المباني الزاهرة ، كالبيادق والجوامع ومقاييس النيل وعمارة القاهرة ، أولاً فاولاً ، أذكره في يوم مبناه وفي زمن سلطانه ، مستوعباً لهذا المعنى ضابطاً لسانه ، على أني أذكر من توفي من الأعيان في دولة كل خليفة وسلطان باقتصار ، بعد فراغ ترجمة المقصود من المعرك ، مع ذكر بعض الحوادث في مدة ولاية المذكور في أبعاء قطر من الأقطار^(٢) " . أما ابن إياس ، فليس

(١) الفريرى : كتاب الملوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٩ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة

دار الكتب المصرية ، ج ١ ، ص ٣ .

بالمطبوع من تاريخه خطبة مشابهة يمكن الاقتباس منها اقتباساً يدل على طريقته في التأليف ؛ على أن القارىء لكتابه يجد ذلك واضحاً شامكاً في جميع أجزائه ، وهو لا يخرج عما تقدمت الإشارة إليه إجمالاً في موضعه .

والحاصل أن طريقتي المقرئى وأبى المحاسن ، وكذلك الطريقة التى سار عليها ابن إياس ، ليست فى شيء من التاريخ بمعناه الحديث : فطريقة المقرئى ناقصة لقطع تنابع الحوادث فجأة عند نهاية السنين ، وطريقة أبى المحاسن مؤدية لشيء من الخلط والاضطراب ، بسبب مراوحته بين الإفاضة فيما هو بصدد من حادثة أو مسألة ، وبين تأجيل ذلك إلى صفحات الوفيات التى ذيل بها عهود السلاطين ، مما نتج عنه نقص أحياناً وتكرار أحياناً أخرى . ويقال مثل هذا وذلك بصدد طريقة ابن إياس ، لأنها فى الواقع مزيج من الطريقتين السابقتين .

ثم إنه يلاحظ أن المؤرخين على وجه التمام قنعوا فى كتبهم هذه بذكر الحقائق مجردة عن أسبابها ، ودرتوا الحوادث شهراً فشهراً — أو يوماً فيوماً أحياناً — دون أن يحاولوا ربط حادثة ما بشيء سابق ، أو يجعلوا من كتابتهم قصة متصلة ، أو يعرضوا لشيء من المقدسة والنتيجة لهذا أو ذاك مما كتبوه . على أنه من الحق أن يسجل لهم أنهم انتقدوا وفلسفوا وأنهم بأحكام واضحة فى بعض الحوادث الجارية ، ولا سيما فى الأجزاء المعاصرة من

مؤلفاتهم ، وذلك على الرغم من أن أحكامهم هذه جاءت دائماً من باب التعقيب على الحوادث للمظة والاعتبار ، دون أن يكون فيها شيء من التعليل أو التحليل أو الاستقصاء .

وأما طريقهم في الأجزاء غير المعاصرة من مؤلفاتهم ، فهي أن ينقلوا من كتب السابقين نقلاً حرفياً ، مع ذكر اسم المرجع أو مؤلفه أحياناً قليلة فقط ، فشوا بذلك على المبدأ القديم للتواتر بأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان ، ولم يتعرضوا لمقوله بمقول أو نقد أو تبريح أو تعديل ، ما عدا أنهم غيروا بعض الألفاظ بين العبارة والأخرى . على أن تلك الطريقة التقليدية عادت بفائدة لا يمكن المبالغة في مداها ، إذ حفظت بفضلها كتب مفقودة أصولها الكاملة حتى الآن ، ولولاها ما وصل من تلك الكتب شيء المتأخرين ، ولولاها كذلك ما عرفنا كثيراً مما هو معروف — وإن جاء ناقصاً — من أساليب المؤرخين في مصر وغيرها من البلدان الإسلامية في العصور الوسطى .

وأما ما يتعلق بالقيمة القياسية لسلك من الأجزاء المعاصرة في تلك المؤلفات جميعاً ، فتقرر ذلك مرتبط بما استقام للمؤلف من مقدرة على استقاء الأخبار من منابعها كرجال الدولة والدواوين ، وعلى تنقيتها وغربلتها من الشوائب والزوائد . وعلى هذه القاعدة يتبين أن المقرئى حرص في الجزء المعاصر من كتاب السلوك على أن يكون رجلاً نقادة جريئاً ، يعرف الغث من السمين

عما يترأى إليه من أخبار وحقائق ؛ ولذا يجد القارىء بصفحاته معلومات قل أن يجدها في مثل مساحتها من كتاب آخر ، وذلك فضلا عن انفرادها بحقائق ضافية في أحوال السقود ، وقوانين المعاملات التجارية ، والاحتكارات السلطانية ، والأمان الجارية لأنواع الأطعمة . غير أن الجزء الأخير من هذا الكتاب يوافق زمنياً عهد السلطان رسباى ، ولم يكن المقرئ من المقرئين إلى ذلك السلطان ؛ ولذا يلمس القارىء في ثمايا هذا الجزء من الكتاب شيئاً من المرارة والكراهية ، إلى جانب الجرأة في النقد ؛ وذلك بمكس ما يقابله في النجوم الزاهرة لأبى المحاسن ، إذ جاء أسلوبه أهدأ وأعدل ألفاظاً ، لأن أبا المحاسن ظل من الحثمين حول بلاط رسباى وحاشيته .

غير أن المقارنة الدقيقة بين ما جاء في كل من السلوك للمقرئى والنجوم الزاهرة لأبى المحاسن من أخبار متفقة الوقوع تدل في وضوح على أن أبا المحاسن نقل كثيراً من كتاب أستاذه نقلاً حرفياً ، دون أن يُعنى بالإشارة إلى مرجعه . ومن الجلى أن أبا المحاسن لم يجد ثمة سبباً يدفعه إلى الاعتراف بذلك النقل ، مادام أنه عاصر الحوادث بعينها ، وربما شهدا بعينه كذلك ، وهذا تفسير من غير تبرير مقبول . لكن الذى يستحيل تبريره ألبتة أن أبا المحاسن كان كلما وجد نفسه مخالفاً لأستاذه ، نقل روايته بنصها وفصلها مهما طالت ، وأنعمها بنقيد وتصحيح من

عنده ، في لهجة خالية من اللياقة أحياناً . على أنه إذا أغفلنا تلك الناحية من نقد أبي المحاسن لأستاذه ، فإن ما أورده بصدد كثير من الحوادث من نصويب وتصحيح جاء أقرب إلى الحقيقة والواقع مما كتب المقرئى ، إذ المعروف أن المقرئى هو السابق في الكتابة ، وأنه اعتزل الحياة العامة منذ ترك الوظائف والدواوين ، وأن تلك الفترة الأخيرة من حياته هي التي اشتمل فيها بالتأليف ، على حين بقى أبو المحاسن طول عمره متقلباً في بلاط السلاطين وبيوت الأمراء ، يتلقى من أقاربه وأصحابه وأصدقائه من موظفي الدولة ما ساعده على توضيح بعض الحقائق التاريخية التي غمضت على غيره . ومع هذا كله هيئات أن يقارن ذلك التلميد النابغ بأستاذه الكبير في ضوء مؤلفاتهما ، من حيث القيمة والكمية واختلاف المقاصد والتنسيق .

أما العيني ، فيكفي لبيان القيمة النسبية للجزء المعاصر من كتابه عقد الجمان في أخبار الزمان ، وهو الجزء الذي يستغرق عصر السلطان برسباى وما يليه حتى سنة ١٤٥١ م ، أن العيني نفسه كان يجلس إلى حضرة ذلك السلطان ليقرا عليه في أمسياته بالتركية من كتابه الذى كتبه بالعربية . على أن تلك البيئة تكون كافية للحكم على قيمته التاريخية ، لو كان من المعروف ما اتهمه العيني من هذا الكتاب الكبير في ذلك العهد ، أو أن العيني ذكر الأجزاء التي قرأها منه على السلطان قصد تعلقه

أو ابتغاء وعظه بأخبار السابقين . وكيفما كان الأمر ، فالمعروف أن العيني تفاق جميع السلاطين الذين أفاءوا عليه من ظلالهم ، وأنه سبق له في أوائل أيامه أن ألّف كتاباً مشهوراً في فضائل السلطان المؤيد شيخ ، كان نظم قصائد كثيرة في مدح كلٍّ من السلاطين ططر ورسباني نفسه .

واستمد ابن حجر في تأليف كتابه إنباء الغمر بأنباء الغمر من كتاب العيني كثيراً ، وقارن الكتابين بمضمهما ببعض مقارنة شملت التفاصيل ، على أنه لم يتممب عثراته بالعدالة والضيطة ، كما فعل أبو المحاسن بمؤلفات المقرئ ، بل اعترف بالنقل منه اعترافاً صريحاً في قوله " كتبت منه ما ليس عندي ، مما أظن أنه اطّلع عليه من الأمور التي كنا نغيب عنها ويحضرها ^(١) " ، أي أن الكتابين يكمل بمضمهما بعضاً في كثير من المواضع . غير أنه يلاحظ أن كتاب ابن حجر لا يبيح شيئاً بالنسبة لكتاب العيني في الحجم ، بل إن قيمته تنحصر في أنه سجل وافٍ بالحوادث التي وقعت في أيام ابن حجر فقط ، على حين أن كتاب العيني تاريخ شامل لأخبار مصر الإسلامية إلى عصر مؤلفه . ومع هذا فكتاب ابن حجر ممتاز بتعليقات وملاحظات تفرّد بها صاحبها عن سائر المؤلفين

(١) ابن حجر : إنباء الغمر بأنباء الغمر — مخطوطة المتحف البريطاني بلندن ، ج — ١٤ ، صفحة ١ ب .

المعاصرين والسابقين ، ممن استقى منهم بالإضافة إلى العيني ،
كابن الفرات وابن دقاق والمقرئى .

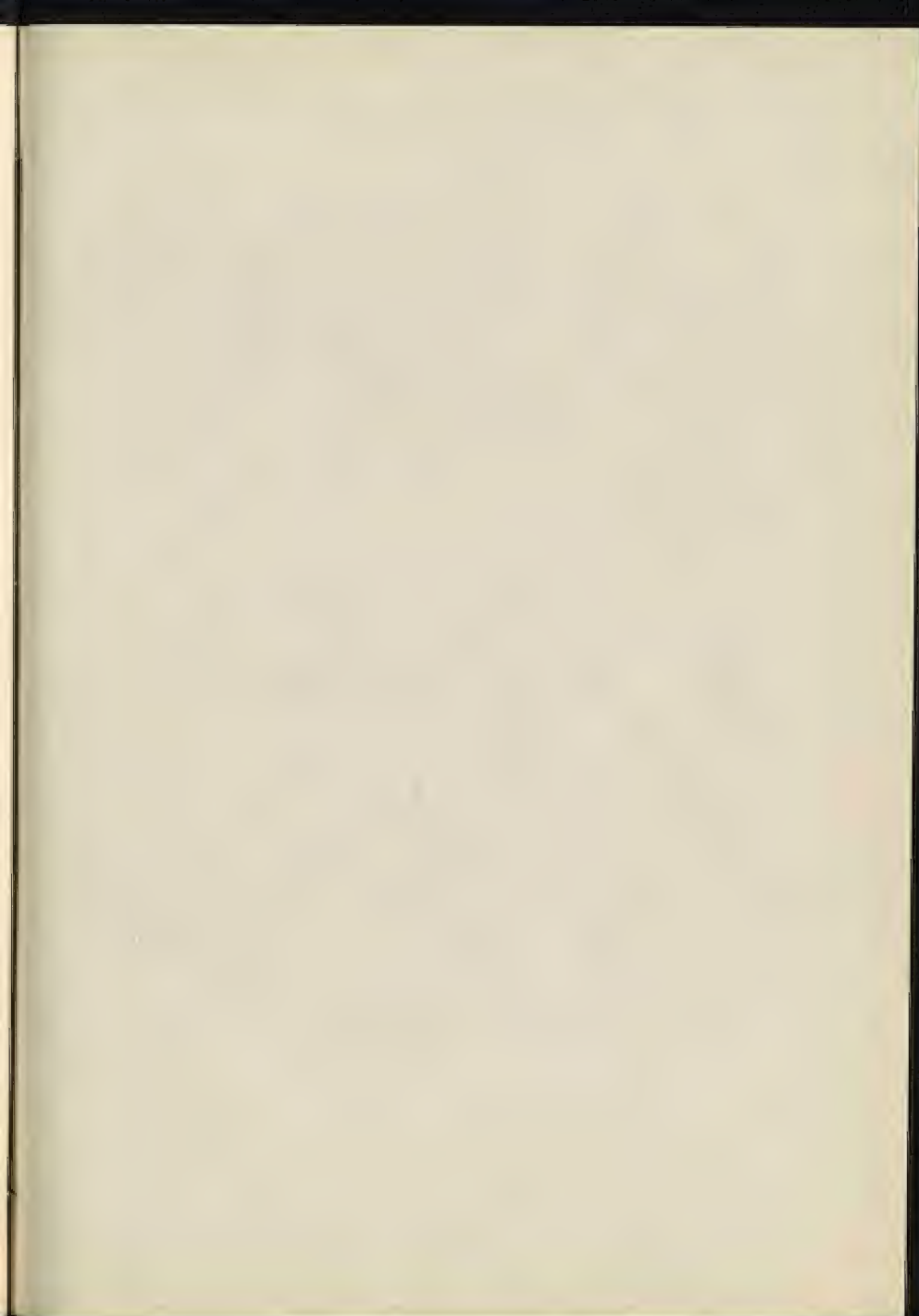
أما ابن إياس ، فالقارىء لكتابه بدائع الزهور فى وقائع
الدهور يفتقد الإفاضات والتفاصيل التى عرفها من مؤلفات
المقرئى وأبى المحاسن والعينى وابن حجر ، فلا يجد لها أثراً . غير
أن أسلوب ابن إياس — مع اختصاره وعزوفه عن الإطالة
والإطناب حتى فى الأجزاء المعاصرة من كتابه — مطبوع بطابع
الذكاء والدقة ؛ وليس فى استطاعة ناقد — مهما علا سمته — أن
يفكر أن ابن إياس كان على جانب عظيم من القدرة ، وذلك
رغم صرامة أحكامه ، ورغم أخطائه أحياناً فى ضبط الوقفيات .

يتبقى بعد ذلك مسألة كمّية لهذا النقد القارن ، وهى مدى
إلمام المؤرخين الذين تقدّمتم أسماؤهم بأحوال البلاد المجاورة لمصر ،
من حيث جغرافيتها وأهميتها الاقتصادية لدولة المماليك . غير أنه
ليس من العدل أن تقدر المعلومات الجغرافية عند أولئك العلماء بما
ورد عرضاً فى كتبهم التاريخية بصدد البلاد المجاورة ، لأن مبلغ ما فى
تلك الكتب لا يعدو ذكر اسم هذا أو ذاك من الأقطار والممالك ،
بمناسبة وصول قاصد (سفير) من عند ملك من ملوكها إلى
السلطان بالقاهرة . بل قليلاً ما يجد القارىء غير ذلك ، مما
لا يزيد عن أسماء الملوك ، أو مسافات الأسفار والطرق والمسالك التى
عبرها القاصد الفلانى كما يصل إلى مصر . غير أنه على الرغم من هذه

القدرة الجغرافية المتوفرة في كتب التاريخ ، فالواقع أنه يمكن القول
 بأن أولئك المؤرخين عرفوا مواضع البلاد الإسلامية القريبة
 معرفة جيدة بفضل أسفارهم إليها ، وأن معلوماتهم بصدد الممالك
 الإسلامية البعيدة لم تكن قليلة بالقياس إلى معلومات المصور
 الوسطى في أوصاف البلدان وجغرافيتها ، وأن ما عرفوه عن ممالك
 أوربا وأساقعها مع ضآلته ونقصه لم يكن مهولاً مملوفاً بالخرافات ،
 بل تضمن حقائق بارزة ثابتة في تاريخها وجغرافيتها وعلاقاتها
 السياسية بحيراتها . ومن تلك الحقائق مثلاً أن دول أوربا
 المسيحية ، كالبندقية وجنوة وقطونية وقبرص ورودرس ، أضمرت
 كلها العداء لدولة المماليك ، على حين اكتفى بعضها بإرسال سفنه
 إلى موانئ السلطان للتجارة الحلال ، وعلى حين شجع بعضها
 الآخر مختلف الإغارات الساحلية والقرصنة التي أوجبت الجهاد
 والاستئصال . غير أن المعلومات الجغرافية البحتة لم توجد
 طبعاً في كتب المؤرخين ، وحسب القارىء أن يولى وجهه شطر
 مؤلفات معاصريهم وأصدقائهم ممن كتبوا في الجغرافية عرضاً
 أو قصداً ، ليعلم مبلغ إلمام علماء ذلك العصر بأحوال البلاد المحيطة
 بدولة المماليك . ومن هذه المؤلفات كتاب صبح الأعشى في
 صناعة الإنشاء للقلقشندي ، وكتاب المنصد الرفيع للنشا الهادي
 لصناعة الإنشاء للخالدي ، وكتاب زبدة كشف الممالك لخليل

ابن شاهين ، وكلها ممتلىء بأوصاف البلاد الإسلامية والمسيحية البعيدة والقريبة .

وتمت مسألة أخرى مكحلة لهذه الخاتمة ، وهي سقم الأسلوب العربي الذي كتب به مؤرخو ذلك القرن مؤلفاتهم التاريخية وغيرها ؛ إذ الواقع أنها تموج بألفاظ وتعاير وجل لا تمت للعربية الفصحى بصلة ، وترخر بمأاميات غريبة واصطلاحات فامضة لا تذكرها القواميس والمعاجم . وأكثر ما يكثر ذلك في كتابات أبي المحاسن وابن إلياس ، بل إن أسلوب المقرئى نفسه لم يخل من تلك الهنات . ويرجع ذلك أولاً إلى ذبوع اللسان التركى بين طبقات الخاصة ، وإلى دخول كثير من ألفاظ اللغات المجاورة (بما فى ذلك اليونانى واللاتينى وفروعه) فى مصطلح الجيش والبحرية والدواوين ، مما أدى إلى كثير من الخلط بين ما هو عربى صحيح وما هو أجنبى غير جائز الاستعمال . وهذا الخلط فى ظاهره وواقعه عيب يؤسف له ، وكثيراً ما شكأ قراء هذه الكتب التاريخية من عرج أسلوبها وغموضه ؛ غير أن ذلك فى باطنه حسنة لا تفكر ، إذ أنه نموذج لحال اللغة والكتابة فى عصر سلاطين المماليك بمصر والشام ، وهو لذلك مادة ذات أهمية للمعنيين بتاريخ الأدب العربى فى مصر ، والمستغلين بدراسة لهجات القاهرة فى مختلف العصور .



مؤلفات المؤرخين الواردة في هذا الكتاب^(١)

١ - أحمد بن علي المقرئ : (ص ٦)

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار - عقد جواهر
الأسفاط من أخبار مدينة القسطنطينية - انماط الحنفا بأخبار
الخلفاء - السلوك لمعرفة دول الملوك - المقفى الكبير -
المقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة - النزاع والتخاصم
فيما بين بني أمية وبني هاشم - إغاثة الأمة بكشف الغمة .

٢ - أحمد بن حجر : (ص ١٧)

فتح الباري في شرح البخاري - المجمع المؤمس والمعجم
المفهرس - إنباء النمر في أنباء النمر - الدرر الكامنة
في أعيان المائة الثامنة .

٣ - العيني : (ص ٢٠)

عقد الجمان في تاريخ أهل هذا الزمان - عمدة القاري في
شرح البخاري .

(١) تشمل هذه القائمة أسماء المؤلفات التي اقتضتها ريسير المؤرخين
في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي ، غير أنها لا تشمل جميع المؤلفات
النسوبة إلى أولئك المؤرخين .

٤ — ابن عرب شاه : (ص ٢٢)

التأليف الطاهر في شيم الملك الطاهر — عجائب المقدور
في أخبار تيمور .

٥ — خليل بن شاهين : (ص ٢٣)

زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك .

٦ — بهاء الدين الخالدي : (ص ٢٤)

المقصد الرفيع المنشا الهادي لديوان الإنشا .

٧ — أبو المحاسن بن تغرى بردى : (ص ٢٦)

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة — المنهل الصافي
والمستوفى بعد الوافي — الدليل الشافي على المنهل الصافي —
مورد اللطافة في ذكر من ولي السلطنة والخلافة — حوادث
الدهور في مدى الأيام والشهور — نزهة الراي في التاريخ —
البحر الزاخر في علم الأوائل والأواخر — نزهة الألباب في
اختلاف الأسماء والألقاب — حلية الصفات في الأسماء
والصناعات — البشارة في تكملة الإشارة — الانتصار للسان
القتار — الرياضيات والموسيقى — السكر القاضح والمطار القاضح .

٨ — نور الدين بن الصيرفي : (ص ٣٦)

زهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان — أنباء الحصر في
أبناء العصر — سيرة الأشرف قايتباي — الجوهرية في
السيرة النبوية .

٩ — أبو الخير السخاوي : (ص ٣٦)

التبر المسوك في ذيل السلوك — ذيل تاريخ دول الإسلام
— الذيل المتأخر — الذيل على طبقات القراء — المنتقى من
تاريخ مكة — تلخيص تاريخ اليمن — الإعلان بالتوحيخ إن ذم
التاريخ — الضوء اللامع لأهل القرن التاسع — الجواهر
والدرر في ترجمة ابن حجر — القول المنبئ في ترجمة ابن عربي .

١٠ — ابن إياس : (ص ٤٦)

بدائع الزهور في وقائع الدهور — عقود الجمان في وقائع
الأرمان — زهرة الأمم في المعجائب والحكم — مرآة الزهور
في وقائع الدهور — نقش الأزهار في عجائب الأنظار .

١١ — عبد الرحمن السيوطي : (ص ٥٦)

شرح الاستعانة والبسملة — تكملة تفسير القرآن —
طبقات الحفاظ — لب الباب في تحرير الأنساب — إرشاد

المهتدين في نصرة المجتهدين — الرد على من أخذ إلى الأرض
وجسهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض — التنبئة بمن يبعثه
الله على رأس كل مائة — الكشف عن مجازة هذه الأمة
الآلف — تنوير الخلق في إمكان رؤية النبي والملك — قم
المعارض في نصرة ابن الفارض — الإمصار عن قلم الأطفار —
بلوغ المآرب في قص الشارب — الوديك في فضل الديك —
مسألة ضري زيداً قائماً — حسن المحاضرة بأخبار مصر والقاهرة
— تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين — تاريخ السلطان الأتurf
قايتباي — بدائع الزهور في وقائع الدهور — تاريخ أسبوط —
كوكب الروضة — تاريخ العمر — المنتقى من تاريخ ابن عساكر
— الشارح في علم التاريخ — نظم العقيان في أعيان الأعيان
— بنية الوعاة في طبقات البحاة — المنتقط من الدرر الكامنة
— الأحاديث الحسان في فضل الطيبان — مارواه الأساطين
في عدم الحى إلى السلاطين — تأخير الظلامة إلى يوم القيامة .

١٤ — عبد الباسط بن خليل : (ص ٦٨)

نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين — نيل الأمل —
الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم — تاريخ الأنبياء
الأكابر — الوصلة في مسألة القبلة — الحكمة والسر في
الضوء — القول المأثور — شرح القانونشة في الطب —
عمدة الطالبين ودرية الراغبين في الفقه .

١٣ — حسن الطولوني : (ص ٧١)

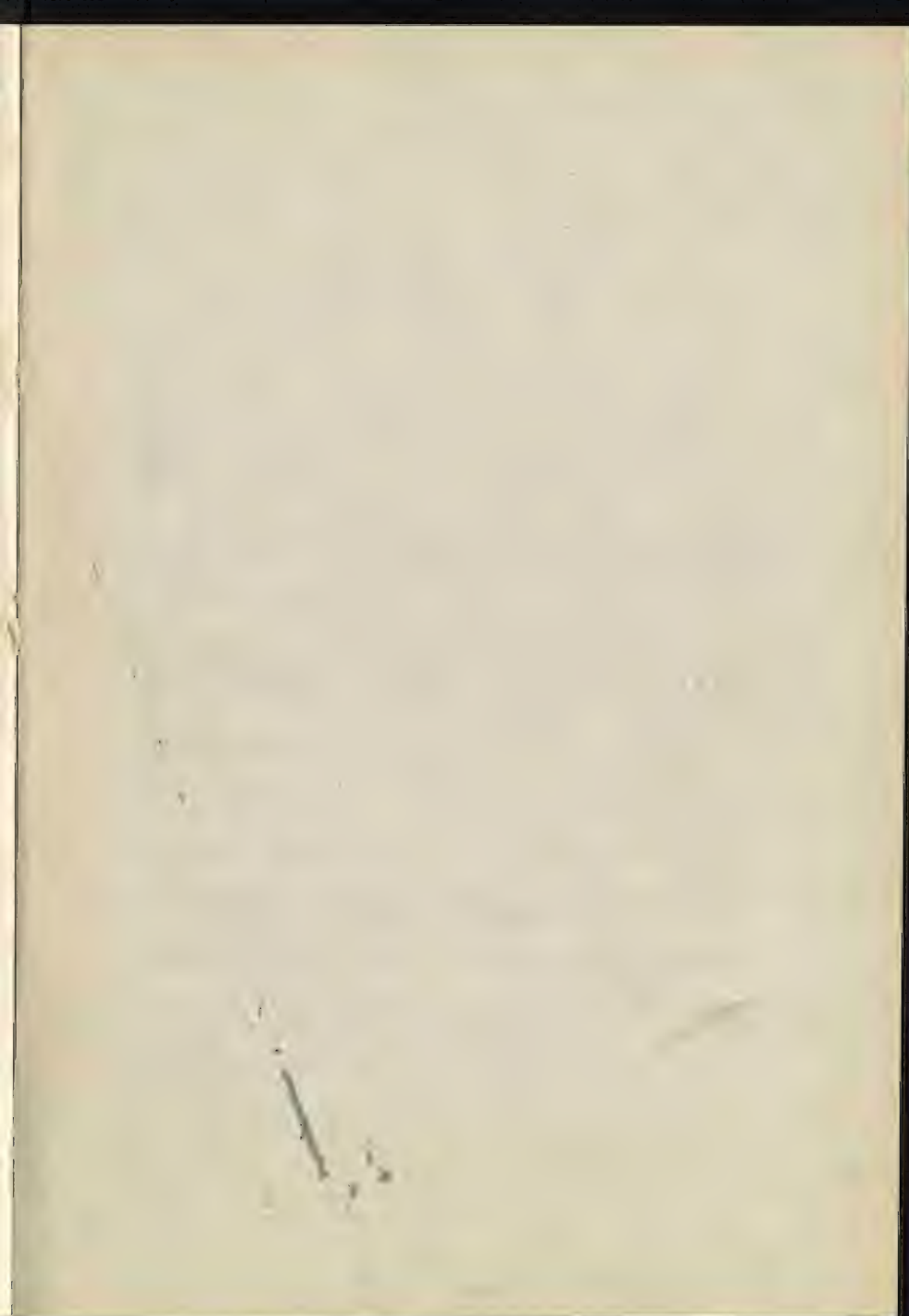
الزهة السنية في ذكر الخلفاء والملوك المصرية — شرح
مقدمة ابن الليث — الأجرومية .

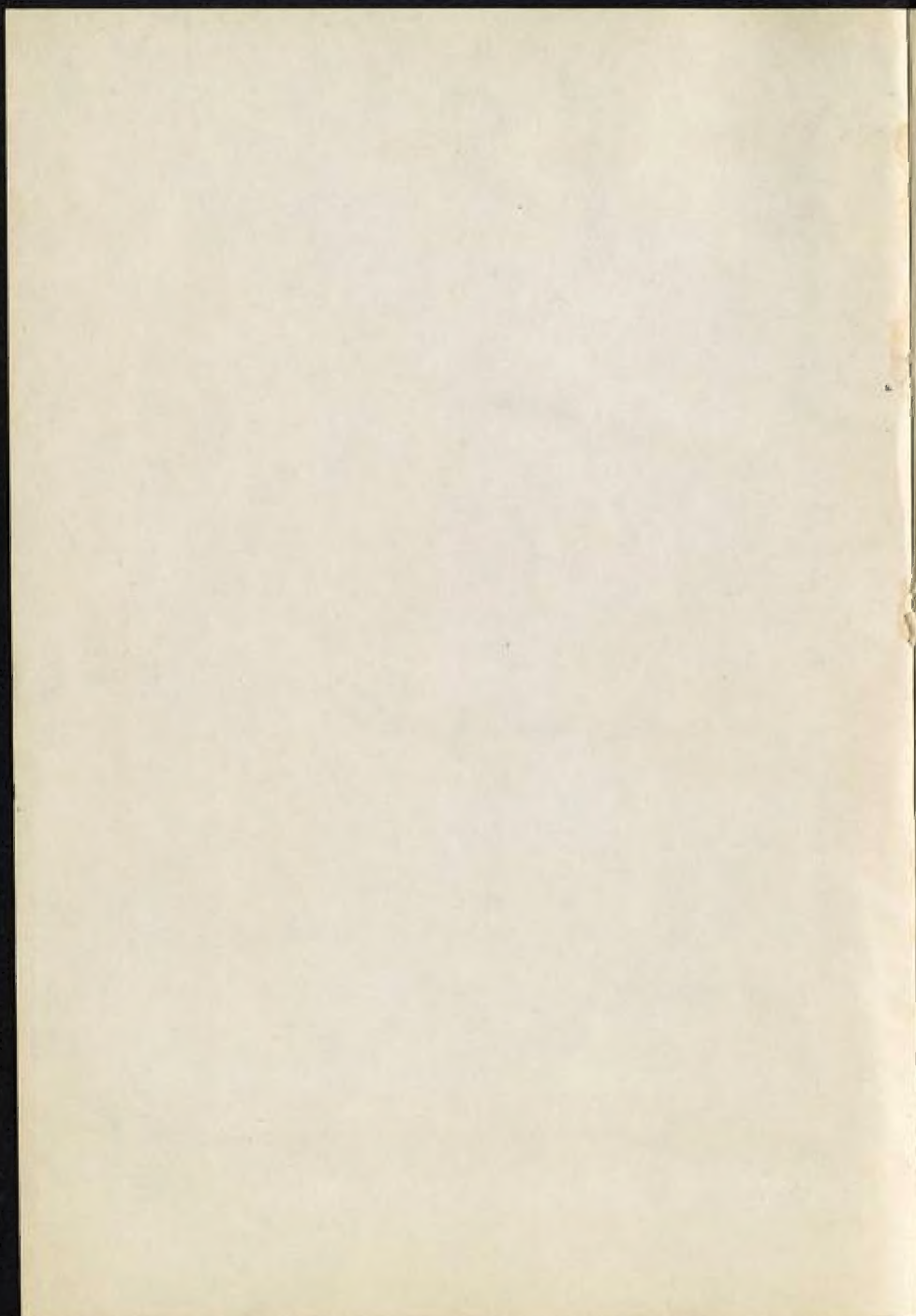
١٤ — ابن زنبيل الرمال : (ص ٧٥)

تاريخ أخذ مصر من الجراكسة — الدرة اليتيمة في تاريخ
مصر القديمة — تحفة الملوك والرغائب — المقالات في حل
المشكلات .

١٥ — محمد بن طولون الدمشقي : (ص ٧٦)

الفلك المشحون في أحوال محمد بن طولون — عجائب الدهر —
المقود اللؤلؤية في الدولة الطولونية — حور العميون في تاريخ
ابن طولون — الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام —
أعلام الوري — سلك الجمان — المنطق المنبي في ترجمة ابن
العربي — الاختيارات المرضية في أخبار النقي ابن قيمية —
التمتع بالأقربان بين تراجم الشيوخ والخلائق .







893.712
Y69

DATE DUE

FEB 15 2012

GAYLORD

PRINTED IN U.S.A.

JUN 1 2 1958

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58868623

893.712 Y69

Muammarhūn ʿi Mīsrī

DECADE